أمل الفاران

حُجرة

رواية

أثر

حُجرة

حُجرة/ رواية
أمل الفاران
الطبعة الأولى 1443 / 2021
ردمك: 978-603-91676-0-0
رقم الايداع: 1443/335
لوحة الغلاف: تميمة النظر- الفنانة عالية الفارسي

دار أثر للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الدمام
تلفون: 00966505774560
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
البريد الإلكتروني: info@darathar.net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية.. بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى.. بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

حُجرة

رواية

أمل الفاران

الجنون كالموت تذكرة ذهابٍ فقط

كل ما يقال عما وراءهما افتراءات

أو تخرصات متبجّحة

سأقامر فأقول إننا نصاب بأحدهما (الموت أو الجنون)

حين نتذكر المستقبل

بعد يومٍ أو أقل

دورة مياه أرضيتها من الرمل.. رملٌ موزعٌ بغير تسوية.. تنشق الأرض كجرحٍ غائرٍ.. من الشقّ تخرجُ نملة.. نملةٌ كبيرة ببطنٍ مصقولٍ كزجاجة.. تتبعها ثلاث.. أربع.. عشرون.. يدبّ النمل.. يزحفُ في كلّ اتجاهٍ.. مريم تخشى جيش النمل.. تفرد كفيها على جداري الحمام المتقابلين.. تفرد قدميها وترتفع خطوة.. خطوتين.. تتبوّل موجهة السّائل الأصفر تجاه النمل.. تصوّبه على الجُحر الذي يتسابقن عائداتٍ نحوه.. تحدسُ أن سروالها تبلل.. تتجاهل الفكرة وهي تضغط بكفيها وقدميها بقوة على الجدارين حتى لا تسقط.. لو سقطت سيجتاحها النمل..

يدوي صوتٌ.. صداه يجلجل في مسام مريم.. يقضم الصوت قلبها.. تفتح عينيها على اتساعهما.. تجد نفسها في فراشها.. في حجرتها.. الأصوات ترعبها منذ فترة.. لكن هذا مختلف.. أطرافها ترتعش.. أنفاسها تتلاحق.. ضلوعها تنطبق على رئتيها.. تضع يدها على صدرها.. تشعر بخفقانه في باطن كفها.. تسحب نفسها من الفراش.. تنسلخ عن الحلم.. تنجح بعد أن يرضّ لحمها الحي.. يبادرها بنبرته العابثة «قامتِ البقرة». تدير بصرها بسرعة في أرجاء الغرفة.. تفتش عنه.. يندسّ تحت أحد ثيابها المعلقة.. تمدّ يدها لهضبة الأشرطة المبعثرة حول آلة التسجيل.. ترميه بأحدها.. تصيبه.. هي متأكدة لأنه يخرس.. بعد دقيقة تسمع

أنفاسه أو أنفاسها.. تتوقع أنه قفز على الرفّ الخشبي الملون.. تمسح ببصرها الأواني الجديدة المرصوصة عليه.. يختبئ في إبريقٍ أحمر.. سمعت قعقعة الغطاء وهو يرده فوقه.. تتجاهله وتقف مواجه الباب.. تتخشّب رقبتها حين تمرّ بمرآتها المغطاة برداءٍ ثقيل.. يكركر «تتجنبين رؤية وجهك القبيح؟ «تُظْلم سحنتها.. استيقاظه بمزاج كهذا يعني أنه سيذيقها يوماً سيئاً جداً.. تحاول التركيز على أي شيء يشغلها عنه.. تلمح حمامةً بريةً على جدار بيتهم الشرقي.. تغمض عينيها رغم الصداع الذي بدأ ينبض في نافوخها.. تنصت للنوح الدؤوب.. الحمامة تكرر رسالةً واحدة.. ربما تحذير.. تحاول مريم أن تفهمها.. يشوّشها «وضعوها لتراقبك» ترد عليه وهي بالباب: كذّاب..

تنتفض الحمامة وتطير..

تقرر مريم الخروج من حجرتها.. توازن أقدامها بعناية: قدمٌ خارج الحجرة وقدم داخلها.. تنقل الثانية بحيث لا تلمس العتبة.. تنظر للجسد الهامد في باحة البيت.. الشمسُ طلعت وحصة في مكانها.. خطت ثلاث خطواتٍ باتجاهها.. تعاينها فتدرك أنّ شيئاً فيها اختلف.. تبدو أطول.. أو هي أسمن.. الأكيد أنّ جلدها أشد بياضاً.. يفحّ في أذنها «وهي كذابة». تريد مريم أن تخالفه الرأي لكنه يقنعها.. نومة أمها المعتادة حلزونية تنكمشُ فيها على ذاتها.. هي الآن ممتدةٌ كجذعِ نخلةٍ وعيونها مفتوحة.. تقف مريم فوقها.. تنبهها.. حصّة لا تجيب!

يحذرها «إن اقتربتِ أمسكت بك» تنخفض باحتراسٍ.. بسبابتها تلمس كتفها.. تدير وجهها قليلاً.. تلمحُ لطخةً مسودة جافة على شحمة

أذنها.. تكشطها بظفرها ولا تتحرك حصة.. تشم ما كشطته.. له رائحة معدنية كرائحةِ الحديد.. بصوت تقريرٍ باردٍ يقول: «لن تنهض. ولم تخبز الفطور» تروح مريم إلى المطبخ.. تجتاز عتبته الواطئة.. تقف للحظة لتعتاد عيونها الإضاءة الضعيفة القادمة من فتحة سقف صغيرة.. تجد نصف خبزة تنور محروقة الحافة.. تقضم الجهة الطرية منها.. تفلق الحافة السوداء اليابسة فلقتين.. تجرف باطنها اللين بسبابتها وتأكله.. على رفّ المطبخِ الخشبي إناء اللبن مغطى بقماشة قطنية بيضاء.. تحل الخيطَ الذي ثبتت به حصّة القماش.. تثورُ رائحةٌ كرائحةِ الإقط.. ترفع القماشة التي تلطخت بالحليب الرائب.. يغافلها فيسحبها من يدها.. يوقع القماش على الأرض «لا تشربي.. مسموم» تتردد.. تخفض رأسها تشم الحليب.. تُميل الإناء ناحيتها.. تمزّ ضامة شفتيها.. ترشف الحليب تحت الجلدة الرائبة.. بين رشفاتها يزعق.. يهمس «ابصقي فيه» لا تطيعه.. يضغط رأسها بقوة.. يغمر خطمها في الإناء..

يناديها أحدٌ باسمها.. ربما تكون أمّها.. تعود لباحة البيت.. حصّة في مكانها لا تتحرك.. تنحني على الجسد المسجى.. تسمع أنفاساً قوية.. ليست متأكدة أنها أنفاسُ حصة.. تسدّ أذنيها بيديها لتحجب كل صوتٍ في الخارج.. لا يصمتُ النفس.. تلمسُ بسبابتها بطنَ حصّة المرتفع قليلاً.. تضغط فوق السّرة.. تناديها.. تسألها: غاضبة مني؟ لأني لا أفعل ما تريدين؟

حصّة ما زالت تتجاهلها.. ذبابتان تسيران على خدها.. تقتربان من بؤبؤ عينها المفتوح.. ترمش مريم.. يغيظها «الملائكة تلعنك الآن» تسبّه فيرفرف في الباحة.. يلمس أشياءً بسبابته ويلعنها ويضحك.. يعود

ليهمس بعد لحظة بصوت نسائي ساخر: «ماتت حصّة وتركت مريم»

ترجع لحجرتها.. تدفع بابها الموارب.. تزفر الحجرة في وجهها ما بقي من أنفاس الطيب المسكوب على مفارشها ممتزجاً برائحة أخرى حامضة.. يدير وجهها لترى قدرًا في وسط الحجرة.. تصدّ عنه وتقبل على فراشها.. يعرف نيتها فيحذرها «لا! سيسرقون البيت» تندس في الفراش.. مرات - حين تنام - يملّ ويبتعد.. يغضب منها «ملعونة» تعدد أيام الأسبوع من السبت للجمعة فالعكس.. تحصي جريد النخل في السقف.. تكرر ما تحفظ من آياتٍ.. يثقل جفنها.. تدخل أحلاماً كثيرة.. أحدها بين هدائم خاوية على عروشها.. يطاردها فيه عيال هائجون.. مرة عند بئر معطّلة مع بُنيات شعث غُبر.. أصغرهن مدفونة في الرمل حتى خصرها وتنتحب.. في آخر أحلامها كانت تمضغ مخدة إسفنجية.. تلوكها وتشعر بحموضة في فمها.. قوام الإسفنجة المسامي يحك سقف حلقها.. يهيج عنق المعدة.. تنقلب أحشاؤها.. تفتح عينيها فتستفرغ.. سائل مخاطي تسبح فيه قطع صغيرة متماسكة.. يندلق السائل على فراشها وثيابها.. تستوي جالسة وهو يتشقلب من الضحك.. تزيل قطعة عجين لزجة من شعرها.. تنهض بإعياء شديد..

تتجه للفاتية.. ترفع بابها الخشبي وتحصي تجهيزاتها.. تجرب ثوبا لم ترتده من قبل.. تلبس خواتمها.. تضع إسورة فصوصها كبيرة وراء الساعة في كفها الأيمن.. يهمس «قبيحة» تهدده بأنها ستخلع الساعة وترميه بها فيخرس.. تخرج مرتعشتها.. توسوس أهدابها الذهبية الطويلة في يدها.. تحكمها حول عنقها.. تتحسس الأهداب الممتدة حتى منتصف صدرها.. تلمس جانب رأسها مرة أخرى.. تتأكد أنها ثبتت مقنعتها

بمشابصها الثلاثة.. تقف في مدخل الحجرة.. تنظر جهة حصة.. صار جسدها كله في الظل..

تسمع طرقاً خفيفاً.. تخمن أنّه يشاغبها فتتجاهله.. يستمرّ الطّرق على باب البيت.. يخفق قلبُ مريم.. ربما جاء أخيراً.. أيكون هو الطارق؟ حصّة اختارت أسوأ وقت لتدعي الموت.. لا يجوز لمريم أن تفتح له.. يحاول أن يحبطها «ليس هو.. جارتكم عادت»

يزداد طرق الباب إلحاحاً.. ترج مريم جسد الأم بصمت لتنهض.. يعلو صوت أنثوي منادياً وراء الباب: يا آل خليفة!

صدق الكذوب.. هو حقا صوت الجارة! يشير بوسطاه إشارة بذيئة جهة الباب.. تقمع مريم ابتسامتها حتى لا تشجعه.. تبتعد عن الأم.. يتكرر النداء.. بعد اسم العائلة تجرّب الجارة اسمي مريم وحصة بالتناوب.. ترفع مريم غطاء الزير الفخاري لتشرب.. الزير فارغ.. حصة لم تعاود ملئه بالماء.. يخمد نداء الجارة.. تنتظر لتتأكد أنها غادرت.. ترتدي برقعها وعباءتها وتخرج.. في الدرب المتعرج تتذكر أنها لم تأخذ عصاها.. عصى بطول ذراع.. مفيدة في الطرقات.. يأمرها «ارجعي للبيت» تكمل مشوارها المعتاد.. تسير في درب ضيق.. يلح «العصا» يندلق ظلها على ما لم يمسح من خِطة رسمتها صغيرات على التراب.. خطوط الحجلة واضحة وآثار أقدامهن كذلك.. تسير بجوار الخطة متحاشية خطوطها.. عند المربع السادس تتمهل.. توازن قدمها داخل السابع.. تنقل الأخرى وراء المربع الثامن.. تنظر للحصيات المركومة عند رأس الخطة.. تتخير واحدة.. تغلق عليها كفها وتكمل سيرها.. ينفتح الدرب على براحة

واسعة قبل أن يضيق مرة أخرى ويتفرع.. في البراحة يلعب صبية.. ينتبهون لها فينقطع لعبهم.. تنتبه لنظراتهم.. تسمع همساتهم.. بعد أن تتجاوزهم يتجرأ غلام فيضع اسمها في أهزوجة بذيئة.. يضحكون وينظرون ناحيتها.. يضعون ذيول ثيابهم في أفواههم ويقتربون منها.. يصرخ «اضربيهم أولاً» تجمد في مكانها.. يخطف الحصية حادة الحواف من يدها.. يقذف أقربهم بها.. يشج جبينه.. يطيّر شعرات من حاجبه.. يتدفق دم حار على وجهه.. يغمر عينه.. ينهمر على شطر أنفه وفمه.. تشوشها الصيحات.. تنحرف خطوتها صوب النخيل.. تكمل وهو ينقل لها صورة ما يحدث خلفها.. أحد العيال يغطي بيده جبين الولد المفلوق ويقوده.. يسوقه لبيت أهله.. يصف لها بصوت جذل ثياب الولدين المصطبغة بالأحمر.. يعيد عليها شتائمهم التي تتفاوت طولاً وقذعاً.. ينخفض الدرب فتلتفت للخلف.. الأفق يطوي العيال.. كأن لم يكونوا؟! صوت مكينة الماء طغت على أصواتهم.. تتبع طلقات صوت المكينة حيث ترتفع.. تقف على حافة بركة.. تتأمل الماء ينصب فيها ومنها للجداول وللنخل.. تلصق بطنها بجدار البركة البارد.. تزيح بأصابعها طحالب صفحة الماء.. تغمر يمينها حتى المرفق في البركة.. تخوض في ماء يكسّر صورة يدها وذهبها.. تستدير متكئة على حافة البركة.. تمسح بعينها جداول الخضرة.. ترصد باذنجانة.. يخفيها عنها بأوراق النبتة الخشنة المغبرة.. يتحلب ريقها.. تقبض على الحبة اللامعة بكفها.. تضغط بأصابعها على عنق الباذنجانة حتى ينبتر.. صوت انخلاعها أيقظ في صدر مريم ذكرى غامضة.. ذكرى الصوت الذي سمعته مرة واحدة فقط.. تشعر بخوف لكنها لن تربط بين الصوتين الآن.. نسمة هواء مرت فجاوبها حفيف سعف النخيل.. تقضم أسفل الباذنجانة..

جافّة مرة.. ترميها.. يطير سرب عصافير.. تستجيب لرغبة غير مفهومة بالعودة للبيت..

تجد الباب مفتوحاً.. تسمع لغطًا بالداخل.. حوقلة وابتهالات.. تظهر في باحة البيت.. تطلق إحداهن شهقة.. تُخرس الألسن الراضية بالقضاء صاحبة الشهقة.. يملأن الباحة بدعوة موحدة بأن يربط الله على قلب البنت.. حشد الأجساد يموج حول مريم.. في أذنها خليط أصوات.. ضجيج كثيف غائم.. يشقّه صوت ذكوري خشن من جهة باب البيت: غسّلنها.. نصلي عليها المغرب إن شاء الله.

مع الأمر الواضح المقتضب كُوّم جريد النخل في مدخل البيت.. تبادلت النسوة نظراتٍ وأوامر مقتضبة.. أُدخل الجريد.. فُرش في الأرض عدة طبقات.. وُضعت حصة عليه.. جُردت من ثيابها.. تحلقت حولها الخبيرات.. تجد مريم نفسها في ثغرة دائرتهن.. تدفعها إحداهن للخارج.. تشدها خمسينية سمينة لداخل الحلقة.. تسكت نظرات الاعتراض بأن عليهن ألا يمنعنها أن تشهد تغسيل أمها.

تقف مريم أمام جثة عارية تماماً.. يبدو إنها لم تكن تدعي الموت.. ماتت وسيدفنونها.. يصرخ في رأسها «أنت الملومة» تبكي وهي تنظر لجسد حصة المستسلم.. تغسل النساء الشعر الأشيب القليل.. تضفّره إحداهن في ضفيرة متقنة وهي تترحم عليها.. تبدو جمجمتها كثمرة عشر طال عنها الحيا.. تترحم النساء.. تتمتم مريم.. يثقب رأسها بصوته الطفولي هذه المرة «في شعرك قملة» تتجاهله لكن انتباهها يتركّز في شعرها.. تحس أطراف الحشرة المخلبية في صدغها.. تحك شعرها

ويوجهها «وراء أذنك» تغرز أظافرها وتحك.. تتبع الدبيب.. تشعر بها أخيراً وقد علقت تحت ظفرها.. تمد كفها أمامها.. تنظر لأظافرها فتجدها تحشر نفسها بيأس بين ظفر ولحم البنصر.. دون قصد تدفعها امرأة خارجة من حلقة الغاسلات فتسقط القملة وتختفي..

تركز مريم على جسد أمها مجددًا.. تقع عينها على عانتها.. وصل دورها في الشطف.. بعض شعرات العانة ترمّد.. الشعرات الرمادية أثخن ومرتفعة عن السود.. لم تعرف أن شعر العانة يشيب.. صوته يختلط بأصواتهن.. يعلو عليها.. ينبهها لامرأة تدخل حجرة أمها.. يشير لأخرى تخرج من المطبخ «بدأ النهب» تجري وراء التي دخلت حجرة حصة.. نصفها العلوي في الخزانة الخشبية.. تغلقها وتعرض حبل ليف أخذته منها: مريرة.. للكفن.

لا تتلقى ردًا من مريم.. يصرخ «فتشيها» تبرم المرأة الحبل على كفها.. تخرج وهي تردد: الله يغفر لها!

تعود مريم لباب حجرتها هي.. تسده بيدين مفرودتين كجناحين.. يعجبه ذلك فتخفض يديها.. تراقب الحوامات في البيت وتبكي.. تواسيها إحداهن بكلمة لا تفهمها.. تهرول أخرى لباب البيت.. يتنحنح رجال في المدخل.. تتستر النساء ويدخل أربعة.. بألواح خشبية مثبتة في بعضها كأنها باب نحيل.. يحملون الجسد المقمط بالأبيض.. يتعالى النشيج.. يخرجون فتلحقهم النساء الباكيات.. يتركن لمريم باحة مفروشة بجريد ملطخ بالسدر والكافور.. يسيل ماء ضعيف باتجاه حجرتها.. تنتظر لسانه الأخضر ليجري من تحتها.. تعود عجوز ممن خرجن قبل لحظة..

تمسح عيونها المخضلة.. تنظر لكل الذهب على مريم.. تغض الطرف عنه.. تأخذها بيدها: هيا يا بنتي معنا نصلي على أمك..

***

بعد ثلاثة أيام

البئر يجذبها.. تشعر به وهو يشدها نحوه.. تسمع أصوات صبية يسبحون في قلبه.. يضحكون.. يرشرش بعضهم الماء والشتائم.. يتخطاها أبوها دون أن يلتفت.. تعرفه.. تعرف ظهره.. تعرف مشيته.. تميز رائحة الهيل في أنفاسه.. الطريقة التي يلف بها عمامته.. يريها وجهه المبتسم ويقفز.. يقفز بثيابه.. بعمامته.. يغطس في جوف البئر.. تدنو أكثر من الحافة.. ينفر سرب حمام كان قابعاً في الداخل.. يطير السرب.. يطيّر مريم.. تحلّق فوق بيتهم.. فوق الحي.. فوق البلدة.. يحملها بساط خفيّ بارد.. تتكئ قليلا على مرفقها الأيمن فيأخذها يميناً.. تميل نحو الشق الآخر فتجنح شمالاً.. تميز المقبرة.. تحني رأسها للأمام فتشق الفضاء هابطة.. تلمس ترابها.. تذكر لونه الضارب للحمرة مع أنه الآن يبدو مكفهراً.. تثبت نظرها على قبرين متجاورين.. الأول طويل.. على الثاني بصمات طينية.. تبرك دونهما.. في الفسحة بين ركبتيها تحفر.. تجرف الرمل بيديها وينهال طامساً ما حفرته.. تغرز يديها مرة أخرى فتنتبه.. كفاها غريبان.. مشوّهان.. غير آدميين. يشلّها الرعب.. تفتح عينيها فتجد أربعة عيون تحدق في وجهها.. شاب وفتاة يتشابهان جداً.. لو وضعت شارباً للفتاة أو خففت حواجب الفتى لاستحال التمييز بينهما.. يتأكد الفتى أنها وعت وجودهما.. يقبل رأسها ثم يرفع نفسه.. يكمل التعازي

التي تدرب عليها في الطريق.. تقبّل الفتاة جبين مريم وخدها: خالة! عرفتنا؟ عيال أختك موضي.. جئنا من الوادي.. قبل ساعة.. كنت نائمة فلم نشأ إيقاظك.. دخلت حين سمعت صوتك.. هل كنت تحلمين؟ لكزها الولد فسكتت.. عاد يقترب خطوة: عظّم الله أجرك!

تنكمش مريم وهي ترد: أجرنا وأجركم! تسحب نفسها عن أطراف الفتاة المتعرقة: عيال موضي؟! الوادي؟!

تتفرس مريم في وجهيهما.. لا يشبهان الصغيرين اللذين رأتهما مرات قليلة قبل سنوات.. يوشوشها «كذابان.. وسيقتلانك» تنقّل بصرها بين وجهين متطابقين يطلان فيها.. يهمس صوت أنثوي في أذنها «أما قلت لك إن الله سيعاقبك؟!» تنكمش وتحاول أن تغطي وجهها.. تبكي البنت ويصد الولد..

تقرر أن تنهض لتهرب.. يمد الفتى يده لخالته.. يترحم على موتاهم جميعاً.. يأخذ يدها المترددة.. يدعو الله أن يبقيها لهما أمًا وعوضاً! يقودها لباحة البيت كطفلة تائهة.. يشير لشقيقته بصوت يخفضه كثيراً بأن تنظف حجرة الخالة.. تهتف مريم: لا.. لا تقربيها! أنا أنظفها.. ترتبك الفتاة.. تجمد في مكانها.. يطل هو من وراء الفتى.. يعبث بشماغه.. يهتف «سيخنقك بهذا»

بعد ثوان، تستأذنها البنت بأن تخرج مواعين الطعام من الحجرة: أهي لكم أم لجيرانكم؟

- بعضها ليست لنا.. ليست لنا.. لهم..

- سأغسلها لنردها لأصحابها غداً.

بفحيح يقول «ستفتش حاجاتك» أنفاسه تضج في عنقها.. ضربات قلبه تصم أذنيها.. ينبهها «يشغلك بكلامه وأخته تسرق غرفتك» تحاول ألا تفكر بأنهما متفقان فعلاً.. قد يسمعان أفكارها.. نظرها لا يحيد عن باب حجرتها.. البنت لا تخرج بإناء حتى تعرضه عليها مستأذنة.. يسألها الفتى عن أحوالها.. لا يفهم ما يتلقاه من غمغمات وهي تراقب شقيقته.. يحكي لها عن مرض أمه الطويل.. عن أبيه وكيف مات.. عن الوادي.. عن جدته.. يضحك ضحكة متوترة: عائلتنا تتابع صوب أخراها.. أجدادي من الجهتين.. أبي وأمي.. لم يبق لنا إلا أنت يا خالة!

بملامح شاردة ترد: لم أنم.. سأنام.. ما نمت..

- نوم العافية!

تعود لحجرتها.. تسلم الفراش جنبها.. تعدل مخدتها لتكشف من مضجعها كل شبر في البيت.. تلوم نفسها والميتة.. البيت الآن في يد غريبين..

بعد أن تغسل الفتاة المواعين تقف في الباحة.. يداها على جنبيها.. في ذهنها تجرد ما أنجزاه في ساعة: نظفنا الباحة من الجريد المبعثر المتكسر.. غسلتُ القدور المتسخة.. هو رد الزير الملقى على جنبه مكانه.. أنا نظّفت قعره الطحلبي وملأته.. أعدنا غنم الجدة للحوش.. أطعمناها قبل أن تهلك.. غداً نصلح بابه.. غسلنا برميل الماء التي تطفح فيه الخنافس.. سأملأه من ماء البلدية حين يصب.. يبقى أن أنظف غرفة خالتي المكتظة.. أزيل شباك العنكبوت من زواياها.. أغسل أصص الزهور

البلاستيكية المغبرة عند مرآتها..

يظهر الفتى في حلق باب غرفة الجدة بلحاف، يرفعه لأنفه: هذا رائحته أخف.. إن لم تريديه أخذته.. تهبه الفتاة اللحاف بإيماءة من رأسها.. يخبرها أنه سينام في المجلس.. في وسط البيت يقفان.. هو يطوي اللحاف ويبسطه وهي تجيل نظرها في المكان.. تترحم على جدتها، يخبرها أنه بدأ يستعيد قليلاً ذكرياته عن البيت.. تسأله: أنام عند خالتي؟ أم في غرفة جدتي؟

يشعر شقيقها بمسؤولية غامضة عن هذا القرار.. ينظر جهة حجرة الخالة.. يستدير بسرعة: نامي في غرفة جدتي.. أفضل.

تلتفت لحجرة الجدة.. تريد أن تخبره كيف ينقبض صدرها كلما أطلت فيها.. يذهب للمجلس وتخرج مريم من حجرتها.. تتجه للمطبخ فيفاجئها ظل البنت في ساقتها.. تشهق حين تلتفت خلفها فتلمحها.. ترتعب الاثنتان.. تلتقط الخالة أنفاسها مسندة يدها للجدار.. تسألها البنت إن كانت تعشت.. مريم لا تسمعها في ضجيج الأنفاس.. تكمل طريقها دون ردّ.. البنت في باحة مظلمة تلعق خيبتها واقفة.. تختلس نظرات للغرف حولها.. لأبوابها المواربة المنطفئة.. يريحها ألا أحد شهد إحراج الخالة لها.. تضيء مريم اللمبة المشنوقة في سقف المطبخ.. تجد القدور مغسولة ولا شيء يؤكل.. تتجه لحجرة التمر.. تفتح بابها وتخطو للحوض الطيني.. حافته عند منتصف فخذها.. فيه حصيلة صرام الصيف.. لم ينقص منه الكثير بعد.. تلتصق قدمها بدبس يسيل من فتحة تصريف صغيرة في الحوض.. تمد مريم يدها فلا تطال ما تريد.. تبسط

كفها على الجدار فوق الحوض.. تميل جذعها داخله.. يضربها على مرفقها فتزل يدها.. يكحت الجدار جلدها ويغرس بعض تبنه فيها.. تجد نفسها في الحوض.. تئن.. تمسح كفها في ثوبها.. تسمع خطوات مقبلة.. تحشو فمها بالتمرتين والثلاث.. ترمي النوى في زاوية الحوض كي لا يراه القادم.. تشهق ابنة موضي حين تجد خالتها في الحوض.. تسمي عليها وهي تقترب.. تمد يدها لتعاونها للخروج.. كف مريم المرتعشة تحط على كتف ابنة موضي.. تبتسم فتاةٌ افتقدت اللمسات الأمومية زمناً.. تنظر لمقدمة رأس الخالة تحت مقنعتها المنخّلة.. شعرها من تحتها يبدو خفيفاً.. تتجرأ فتلمس ضفيرة مريم المختبئة تحت المقنعة.. تمد الضفيرة على استقامة عمودها الفقري.. ترتد كذيل سحلية مذعور.. ترمقها مريم بنظرة بين الاستفهام والخوف.. تروح الفتاة لتعود بماء تغسل به الخالة أكفها وأرجلها المدبسة.. تمدها بالإناء وابتسامة.. الابتسامة لا تصمد حين يبقى الإناء معلقاً بين الاثنتين.. تبادر فتغمر الأيدي في الماء.. تسحب مريم يديها.. الفتاة تركع لتصب الماء على أقدامها.. بتشكك تقول مريم: أتعرفين كيف تتصرفين إذا جاء؟ كيف تستقبلينه؟

- من تقصدين يا خالة؟

يقف غاضباً جداً بينها وبين الفتاة.. يهز رأسه معارضاً ومنتقداً.. أنفاسه المتوترة تلهب صدر مريم.. يتضخم مع كل شهيق.. تفرّ أسماء الرجال من رأسها.. اسمه وأسماء ليست له تتبخر..

تشفق على خالتها المرتبكة لفقدان الجدة.. تحيط كتفيها المحنيين بساعدها وتقودها: الليل ليّل ونحن لم ننم.

تطمئن مريم حين تراه يطير للسطح.. تستغل غيابه لتهمس للفتاة: معك دراهم؟

- مع أخي.. ماذا تريدين؟
- بطاريات للمسجل..

تنظر البنت للخالة مستغربة.. يتجه نظرها لا إرادياً للمجلس.. تقرر أنها لن تطلب منه ذلك الآن.. مريم تكمل: الأحجار الحمراء (أم قطو)

- أبشري يا خالة.

تدير بوسطاها وإبهامها الأيمنين خاتماً في يسراها.. تريد أن تطلب أشياء أخرى.. أن تختبر ما يمكن للفتاة تلبيته.. تنظر الفتاة لأصابع مريم.. تحجم عن سؤالها حول مبرر ارتداء كل هذا الذهب.. تسكتان وترفع البنت طرف ثوب الخالة لتتأكد من نظافة قدميها أو لترى عورتها.. مريم تسحب ذيل ثوبها في لمحة.. تخلف البنت في الباحة وتعود لفراشها.. يرجع الفتى من المجلس.. يشير لحجرة خالته مستفهماً إن كانت نامت.. يسأل أخته إن كانت مثله تجد صعوبة في النوم في بيت غريب.. تقر الفتاة أنها والخالة دخلتا حجرتيهما وخرجتا عدة مرات.. يحك عارضه ويستفهم عن الأشياء في حجرتها.. تتذكر الفتاة الثياب والصناديق والمواعين.. ترد غير واثقة: أليس جهاز عرس؟

يميل الفتى رأسه ليصب الفكرة فيه.. يشعر أنها التفسير الوحيد.. يقرر بأن هذا الزواج يجب أن يكون صامتاً.. أو أن يتأخر سنة تقريباً إن أرادوا دفوفاً.. تخجل البنت أن تسأله إن كانت ستغدو المسؤولة عن عرس خالتها؟ لا يجب أن تجهز العروس حاجاتها ولا أن تستقبل الناس

في عرسها.

الصباح يأتي بنساء الحي كله.. يكدسهن في حلق البيت.. في رمشة عين يقدمن تعازيهن.. وقبل أن تعرف بنت موضي أسماءهن ينسحبن.. مع ذلك أمكنها رد مواعين المتفضلات.. مهارة تعودت عليها في الوادي.. بعد النساء يقعد الشقيقان.. يرتبان ما قيل لهما عن الجدة في رأسيهما.. يخصفان ما يتذكران بما سمعاه من أهل البلدة.. قيل الكثير لكنهما لم يخرجا بعد برواية واضحة عن موتها.

- تقول إحداهن إن أمنا كانت تشبه جدتي حصة أكثر.

يومئ الفتى برأسه موافقاً رغم أنه لم ير وجه خالته جيداً.. يسأل أخته إن كانت ستظل تلبس البرقع في البيت دائماً.. تقر بأنها لا تعرف.

- لماذا تلبسه وهي لم تتزوج بعد؟

تجد الفتاة نفسها مضطرة لخلق مبرر لخالتها.. ربما لأنها كانت تخرج لتساعد أمها في النخل.. تضيف بحماس من وجد عذراً أفضل: وربما كانت تحب أن تلبسه.. بعض البنات يفعلن.

يعم صمت فتعدد واجباتهما اليوم.. تستخدم نبرتين مختلفتين لفصل مهامها عن مهامه.. لا تسمع منه غير: يعين الله!

تطمئنه وقد بان في عضلات وجهه التقلص الذي رأته بعد موت أمها: سنفعل ما كنا نفعله في الوادي حتى يخف حزن خالتي وتتولى كل شيء.

اعتادت مريم أن تأتيها الشمس بالنوم.. أصوات عيال موضي أربكتها.. تزعجها أصداء تحركاتهما في البيت.. تنكمش في فراشها حتى تهزها يد البنت: خالة! خالة!

شهقة مريم ورعشتها أفزعت البنت.. تعتذر: أردت أن أسألك إن صليت الفجر.. لم أسمعك تخرجين.. الشمس ارتفعت.

الفتاة تشير للباحة.. الخالة تغمض.. تخشى أن تبذل أي مجهود فيقف قلبها.. حين يهدأ قليلاً تكون البنت قد أخرجت نفسها من الحجرة.. تسمع مريم أصواتهما مجدداً.. تأمل أن يختفيا.. تضع ساعدها على عينيها.. يمضغها الأعياء.. تنقلب على جنبها الآخر مولية وجهها للجدار.. تخرس حركتهما أخيراً.. تخفض أجفانها.. تغطس في خدر رأسها.. تجد نفسها في حجرة أرضيتها صخرية.. تشعر بصلابتها.. تسمع أباها يدعو أمها بأم ناصر.. حصة - بغنج لا تتذكره مريم فيها- تلتصق بكتفه.. تدس يدها على صدره.. تطلب ألا يكنيها بل يسميها باسمها « بتلا» تتوسطهما مريم.. ترجو والدها أن يقبّل أمها.. يضحك مدارياً خجله.. يقبّل حصة قبلة قصيرة مرتعشة على شفاهها.. تفتح عينيها على اتساعهما.. شعور القبلة الجافة على شفتها..

أمها وأبوها في الحلم لم يرتديا وجهيهما التي تعرف.. كان للأم وجه أختها موضي أما الأب فله وجه عامل النظافة الذي تعطيه حصة اللبن أحياناً.. تغفو مجدداً فيوقظها البخور.. تخنقها ألسنته البيضاء.. تنسل من تحت الباب.. من حوافه.. من النافذة.. تخرج فترى باحة بيت عادت فتية. مكنوسة مرشوشة.. باب الحوش أُصلح تماماً.. البهائم محلوبة..

تجتر هانئة.. رائحة القهوة في المكان.. تلمح خالتها.. تجري نحوها.. ترمش مريم بعينيها بتوتر.. تغطّس عنقها بين كتفيها.. تقبّل الفتاة رأسها وتصبّح عليها.. تقعدان على حصير مفروش في الظلّ.. نظرات التشكك في عين الكبرى يقابلها تلهف لتلقي المديح من بنت موضي.. تنظر للخالة ثم في البيت.. في وجه الخالة ثم في الأرجاء.. آثار لمساتها في البيت.. بعد لحظات تجلب القهوة وتنسى الإطراء المستحق.. تصب فنجاناً فتأخذه مريم بتردد.. تضعه أمامها.. تلح الفتاة بابتسامة عريضة: جربي قهوتي.. ستعجبك.. أخبريني إن كانت تحتاج هيلاً أكثر أو عويدي.

تلمس مريم بأصابعها الفنجان.. تغير موضعه.. يباغتها الفتى من الخلف بتقبيل رأسها.. تنتفض فتضحك أخته من رعشة الجسد الذي كان ساكناً من لحظة.. يهمس في أذنها لينبهها أن الفتى قبّل ظاهر كفه لا رأسها.. تشكّ فيقسم أنه وضع يده بين رأسها وشفتيه.. تفحص مريم الفتى.. يجلس أقرب لأخته «أرأيت؟! يبغضك» يتناول فنجاناً فيشرب.. يسأل خالته إن كانت قهوة أخته أعجبتها؟

ترد الفتاة بإحباط: لم تشرب فنجانها.

ترفع مريم الفنجان.. تريق سائله الأخضر بعيدا عن الحصير.. تعيده لابنة موضي لتصب من جديد.. يتبادل الأخوان السؤال المتعجب الصامت.. مع الأيام ستتعلم البنت ألا تقدم للخالة أول الدلة.. أمر آخر سيسجله دماغها عاجلاً.. أمر يخصّ حجرة مريم.. الخالة قد لا تسمح بتنظيفها.. بابها مغلق بإحكام.. سواء كانت خارجه أو داخله.. تبدو الغرفة حراماً دون سبب بيّن.. ستلاحظ البنت أيضاً أن أخاها تعلّم

الغياب.. يغادر صباحاً ويعود للبيت في الليل.. يعمل في نخل الجد القليل.. يعمل فيما توفره البلدة من أعمال صغيرة طارئة.. في الليل يمسح خطايا بعده قدر ما يستطيع.. يبسط وجهه ولسانه للشقيقة حتى يغلبه النعاس.. تتنصت مريم من غرفتها على أحاديثهما الليلية في باحة البيت.. أحياناً ينقلان مؤامراتهما لحجرة الجدة التي احتلتها الفتاة.. يتهامسان أول الليل فلا تلتقط كلمة.. يعبثان بها فلا تعلو أصواتهما إلا في الحكايات غير المهمة.. يحكيان عن الوادي.. اختلافاته عن ديرة الخالة الصغيرة.. عن أبويهما المتوفيين.. عن حصة ومتى غابت عن ذاكرتهما.. ترخي مريم أذنها فيشوشها.. عمداً يرفع صوته فوق صوتيهما.. أحياناً يصدح مسجلها.. صوته يطمر الأصوات كلها.. الأغاني تهدهدها ما لم تبدأ بالتقاط الرسائل الممررة لها فيها..

بعد عدة ليال تستغرب الفتاة: لماذا لم يزرنا جيران بعد اليوم الأول؟

- ربما يريدون أن نعتاد المكان.

يعجبها تفكير شقيقها.. إجاباته الوافية سريعة قريبة.. توافقه وهي قد أرهقت مخها تفكر إن كانت النساء قد أخذن عليها أمراً في الإطلالة الأولى فتجنبنها.. تخبره أو تطمئن نفسها إنهم ما زالوا يرسلون طعاماً رغم ممانعتها.. يؤكد أنهم يعينونه في نخيل الجد الذي لا يحتاج أيدٍ كثيرة.. أحياناً يكلفونه بنقل أشياء ليستطيعوا إعطائه المال.. يغمرهما امتنان هادئ للحظات.. تنظر جهة الغرفة التي تنام فيها.. تتذكر حُلمها بحصة.. تفسير الرؤيا قد يثقل عليه.. سألته: هل طالبك أحد بديون على جدتي؟

- عليها ديون؟!

- لا أعرف.. أنا فقط أسأل.
- لم يقل لي أحد شيئا.

***

بعد أحد عشر يوماً

عليها ثوب غريب.. لم ترتد مثله من قبل.. لا اللون ولا طريقة تفصيله.. قماشته خفيفة فاقع لونها.. الثوب لا يغطي كعبيها ومفتوح من الأمام.. يجب أن تمسك فتحته بيديها وإلا تعرت.. ذبائح مطبوخة موزعة في صحون.. الصحون على بسط في الأرض.. البسط في براحة واسعة.. يقاد المدعوون لينتظموا حلقات حول كل صحن.. مريم ليست مدعوة.. تريد أن تكون معهم وتريد أن تهرب.. هي الوحيدة من غير المدعوين التي لم تنصرف.. تلمس يد أسفل ظهرها.. توجهها لأقرب الصحون.. أصبحت مدعوة هكذا؟! تقترب لتقعد.. المكان الشاغر الوحيد بجوار رجل لم تميزه.. ثوبه ناصع البياض.. شماغه أحمر ولا عقال فوقه.. تتحرج.. الرجل يشدّ نفسه موسعاً حيزاً لها.. تقعد ناصبة ركبتها اليمنى.. ينفتح الثوب ويظهر لحم فخذها من فتحته.. تقف كملدوغة.. تقبض على الطرفين المشلوحين بيدها.. هذه المرة تثني ركبتيها تحتها.. تدس الطرف المفتوح تحت ركبتها اليسرى.. تقعد ولا تأكل.. يوحى للمدعوين أن هناك من سيفتشهم.. يقف الجميع فتقف.. يرتبك الرجل ناصع الثياب.. يخرج من جيبه قروشا فضية لا يعرف أين يخفيها.. ينظر لمريم مرة.. مرة ثانية.. يدسها في سروالها.. بين فلقتي مؤخرتها.. تتوقع الآن خبطة صغيرة تثبت القروش مكانها.. يربت بثلاثة أصابع على

دُبرها.. نقرة خفيفة دقيقة.. لديها الآن شعور ملغز بأن القروش دخلت المستقيم..

يهتك صوت من خارج الحلم نسيج الذبائح المطبوخة بالكركم والثوب الزعفراني (ترى مريم الآن التشابه بينهما).. تجد مريم نفسها في غرفتها وفراشها.. غائمة الرأس تحلل رموز الحلم.. تبحث عما يعنيه اللون الأصفر.. تنقلب على جنبها الموالي للجدار.. تسمع سلام ضيفة ثم احتفاء ابنة موضي.. تنزعج منهما كلتيهما.. أضحى البيت منتهكًا أكثر.. شعور الانتهاك يلطّخ روحها.. يدب في أحشائها.. يندلق في مؤخرتها.. يتركز في فتحة الشرج.. تشعر به في عضلة الفتحة.. تحاول أن تتحكم بها.. تغلقها.. صوت الجارة يزداد وضوحاً.. صوتها في باحة البيت.. تستطيع أن تدخل حجرة مريم إن لم يمنعها أحد.. صوتها يسأل ابنة موضي عن أحوالهم وإن كانوا يحتاجون شيئاً؟ ثم عن مريم.. تلخص الجارة للفتاة ما فعلته النساء من لحظة اكتشاف جثة الجدة حتى الساعة السابقة على وصول الشقيقين من الوادي.. بين كل تقرير وآخر تكرر بنت موضي الدعاء المُجامِل: يعطيكم العافية!

الجارة تراكم اعتذارات بالجملة.. الفتاة تدّعي أن ما من تقصير.. أن قد وجدت الخالة والبيت في أحسن حال.. تستوي مريم على فراشها ناصبة ركبتيها.. الشعور غير المريح في دبرها لا يختفي.. معه الآن رعشة طفيفة في عظمة أسفل عمودها الفقري.. تستمر في التحكم في عضلات مؤخرتها.. تجد أنه - وركبتاها منصوبتان - أصعب..

تقسم الجارة إنها صديقة مريم.. يخرج هو رأسه من البطانية.. تلمح

أذنيه الطويلتين المشوهتين بين أصابع أقدامها.. تحكي الجارة لبنت موضي عن عشرة عمر جمعتها بالخالة.. يتهدج صوتها فجأة.. تقرّ بأن حق مريم عليها أكبر.. لوم الذات معدٍ.. قبل أن تنبتر اعتذارات الجارة تحشرج في بلعوم الفتاة: لم نعرف.. حياتنا كلها في الوادي.. لم نعد بعد وفاة أبي.. أمي كانت مريضة.. تخرج من المستشفى لتدخله من جديد.. حتى ماتت يرحمها الله! حين اتصلتم بنا لم نكن ندري.

تترحم الجارة على الأم والجدة ثم تتنهد: قلبي عند مريم.. آه لو ترجع الأيام التي كنا فيها نثرثر حتى ينتصف الليل.

تتشبث ابنة موضي بالصورة القديمة لمريم قبل الحزن.. تنفخ فيها من روحها.. ترسم مستقبلاً مع الخالة يغسل يتمها.. بالطبع هي ستصبر حتى يصغر الحزن على حصة.. تختم الجارة توصيف مريم أنيقة المظهر المليحة: كان فيها شيء يسحر.. لو لم تكونوا حضرا ما التفت لنا شبابنا.

ترتبك الفتاة بمواجهة تصنيف يخفضها.. اعتادت أن تعلق مرات في حدوده غير المرئية.. لأول مرة تقذف حقائقه في وجهها هكذا.. تكمل الجارة: بعد أن كبرنا أخفتنا البيوت.. لم أعد أقابلها ونحن جيران.. لا تعرفين كم كنت أشتاق لها.. حسبت زيارتها ستغدو أسهل بعد زواجي.. لكنه بدل أن يقربني أبعدني.. رجلي من حي بعيد.. زياراتي لأهلي مخطوفة نادرة.. خالتك كانت تخطب كثيراً وكنت آمل أن تتزوج لتغدو زيارتها أسهل.. بعد فترة أشيع أن أحد الغانمين في حرب اليمن سيخطب مريم.. هههه قيل إنه سيدفن جدتك في المال.. كان قد تزوج من عدة قبائل ولم يبق إلا الحضر.

- هو من خطبها؟

- من؟ هو؟ لا.. لكن كثيرين خطبوها تلك الفترة.. هههه كأنها البنت الوحيدة في البلدة.

تلوم ابنة موضي نفسها على جرأتها غير المحسوبة.. حتى مع صديقة خالتها لا يجب أن تتحدث في خطبة أو عرس.. تلك قضايا لا تطرقها غير المتزوجات.. تفز واقفة: سأقوم لأعد القهوة وأرى إن كانت خالتي استيقظت.

تعيقها الجارة.. تشدها لتقعدها وتتمطق.. تكرر إنها لم تأت إلا لتعرف إن كانوا بحاجة مساعدة؟ تستحلفها ألا تنادي مريم.. تقرر الفتاة أن سيحزنها أكثر أن تأتي صديقتها وتعود فلا تراها.. تسبرها الضيفة بعينين ضيقتين.. تميل عليها: يبدو أنك لم تعرفي.. كيف سأفهمك؟ أنا نفسي لم أع أول الأمر.. حين رووا لي كم تغيرت رفضت تصديق ذلك.. جدتك بدأت تشكو لأهلي تواري مريم وانزواءها.. تنام إن استيقظ العالم.. تستيقظ إن غفت حصة.. وحسمت أمري وزرته.. اكان علي أن أراها.. أتدرين.. ارتعبت.. كانت أنحف ووجهها ذابل.. وحالها اليوم أسوأ بلا شك.. أعني بعد موت جدتك.. فجعتها الوفاة.. بقيت مع جثتها يوماً كاملاً.

تنقلب مريم على جنبها.. تتذكر الرجل أبيض الثوب في الحلم.. هو عم الجارة الشاب.. تعلو الآن الأنفاس.. يزحف تحت لحافها.. بأسنانه الحادة يعض إصبع يدها.. تلعنه وهي تسحبها من بين أنيابه.. تنفض كفها.. تدسه تحت إبطها وهو ينبض ألماً.. يبرك بين صدرها وبطنها.. تتجاهل ثقله المزعج.. يتقزم من تغاضيها.. يبدو كطفل.. طفل قبيح..

أقبح الأطفال.. يعترض بصوت مهزوز «اخرجي واضربيها»

تعلن باقتضاب أنها لو خرجت فستخرج من البيت كله.. يتفاجأ.. يمسح أنفه السائل بظاهر يده.. يسألها بصوت أخشن «لماذا؟

- لأني أريد ذلك..

يقترب منها.. يتحداها مستمتعاً بإغاظتها: «لو خرجت ستراك»

- لا يهم!

يستخفه الأمر «اخرجي وابحثي عن العم.. لكنك لن تعرفيه الآن»

- أعرفه بين عشرة رجال..

يتحمس « إن وجدته أدبيه.. اطعنيه»

- أين؟

- «في عنقه كما يُذبح بعير.. ولا تصدقي موته حتى لو سمعت رُغاءه والدم يشلشل»

في الليل تتلقف ابنة موضي شقيقها في الباب.. تحدثه بأنفاس متقطعة.. تنظر جهة داخل البيت كل لحظة.. تمسك بجيبه: أنا خائفة.. زارتني صديقة خالتي.. قالت إنها ممسوسة.

- الضيفة؟

- مريم.. خفت أن أبقى حولها ويلبسني الجن.

يختلف لون الفتى.. يتذكر كلاماً سمعه في الوادي.. غلام قال إن لأحد أقاربه قرينة من الجن.. جنية عاشقة.. يحلف إنها تلقي بنفسها على العم حتى في المجالس.. تعاشره كل ليلة.. عشر مرات في الليلة الواحدة.. يستحي الفتى من هواجسه في حضرة أخته.. يعلو صوته وهو صاد: تكذب.. خالتي ما فيها غير العافية.

- متأكد؟ قالت إن الجميع فطنوا لتغير حالها.. إنها تلك الفترة بدأت تخرج في الشوارع.. الفتيات لا يخرجن دون رفقة أهلهن.

- لو سمعتها لقطعت لسانها.. خالتي ما فيها شك.. وكيف تكون صديقة وهذا كلامها؟!

تخرس الفتاة.. يزفر منزعجاً من التهم الثقيلة.. يضع يده على كتفها: الممسوس إذا سمع الطرب يتخبطه جنه.. مسجل خالتي -هداها الله- لا يصمت ليل نهار.. هل رأيتها تتخبط؟!

تزول رعشة جسدها.. نظراتها تثبت عليه.. تكرر له أو لنفسها بأن معه حق.. يتشجع فيسألها ليجتث كل ما زرعته الضيفة: ماذا قالت أيضاً؟

- سأقول لك وستغضب.. قالت إنها ومرة في زيارة لأهلها وجدت خالتي بباب البيت.. استغربت وقفتها.. العذراوات لا يقفن بالأبواب.

يلعنها الفتى وتكمل البنت: قالت إن خالتي نادتها.. سلمت بحفاوة كما كانت تفعل قبل.. قبل.. المهم.. قادتها لحجرتها لتريها جهاز عرسها.. في باب الحجرة وقف شعر جسدها.. شعرت بحضور الجني.. خالتي رأته وكلمته.. بعدها رأته.. رأسه كبير كمحفرة وجسده جسد طفل وأطرافه رخوة.. خرجت تتعثر في ثيابها.. قابلتها جدتي بالباب.. لم

تسألها.. لم تتمسك بها لتتقهوى.. ارتباك جدتي جعل الصديقة تدرك أنها تعرف أن خالتي ممسوسة.

يصمت الفتى لحظات.. لا يريد الخوض في ثرثرات نسائية ولن يدع أخته رهينة الهواجس.. يفند ادعاءات الضيفة.. يقنعها أن عدم حفاوة الجدة بها دليل قاطع أنها غير مرغوبة.. تساءل كيف تعد نفسها صديقة لمريم وتتقول عليها؟! تأتي لتعزي في حصة فتنبش حكايات مريضة.

تخجل الفتاة من سذاجتها: صادق! هي حتى لم تحاول أن تسلم على خالتي.

- خالتي التي لا تنطق تعرفها أفضل منك.. لم تستقبلها.. انتبهي من بعض النساء.. نحن لم نعرف طيب البلدة من خبيثها بعد.

تشفق البنت على خالتها.. تفكرت في حياتها الصعبة.. يتيمة الأب والأخت الوحيدة كانت في بلد آخر.. عاشت هي وأمها وحيدتين.. من يدعين صداقتها ينقلن عنها كلاماً سيئاً..

يفرش الفتى مرقده المطوي.. تنهض الفتاة.. تجد نفسها تخبره عن خطاب خالتها من قبائل وحضر.. يبتسم وتكفّر عن ظنونها في مريم بالحماس: سنعيد خالتي كما كانت وأفضل.

يضحك الفتى: اجعليها تستحم أولاً.

- ستفعل.. سترى.

يتلون وجهه.. بصوت مبحوح متشنج يرد: لا لن أرى.

الصباح التالي ترهق البنت نفسها والخالة.. تلح ومريم تماطل.. تمانع.. أخيراً تساوم: سأبدل ثوبي..

تقدّر وضع خالتها.. وهنها لا يساعدها على الاستحمام بنفسها وحياؤها يمنعها من السماح بالمساعدة.. تهمس لها: خالة يجب أن تستحمي قبل أن تبدلي.. بعدها أبخرك وأمشط شعرك.. كنت أفعل ذلك لأمي.

مريم تفتش في عيني الفتاة التي تسوقها جهة دورة المياه.. تبحث عن سر إلحاحها.. تفحص الثوب الذي انتقته لها.. أنفاسه المتلاحقة تشق أذنيها.. ينضم له آخرون.. ضحكاتهم الساخرة تنطلق من كل جهة.. أصواتهم تنبعث وراء الجدران.. يكركر «ينظرون لجسد مريم» تحرن عند باب الحمام.. تفرد كفين مرتعشين على ضلفتيه.. تقاوم نطق السباب الذي يتزبد على لسانها.. البنت أنشط منها.. وهي لا تدفع مريم تماماً ولا تدعها.. تستسلم أخيراً وتدخل الحمام.. تخرج وهي تقطر ماء.. تتلقفها الفتاة وهي تضحك مستغربة من قصر وقت الاستحمام.. لا تفهم مريم ضحكها.. تقعد في الشمس.. تدعها تفعل ما تريد.. تدهن أطراف الخالة ووجهها.. تكحلها.. وهي شبه ساجدة تقص أظافر أقدامها.. في ذات اللحظة تتذكر البنت والخالة أميهما.. ذكرى غامضة مشوشة في رأس إحداهما/ حادة كسكين في قلب الثانية.. يجلب الفتى بطاريات لمسجل خالته كما وعد.. يقبل رأسها ويهديها مقنعة جديدة.. بعد الانتهاء يقعد بينهما في المجلس.. يبتسم بلا سبب واضح.. يتأمل وجه خالته وكأنه يراه لأول مرة.. تبدو جميلة بحق.. يسترجع تلميح الجارة للمس الشيطاني لينسفه.. مع مغيب الشمس كأسرة سعيدة يلتمون حول عشائهم..

تتنفس الفتاة برضا من استعاد أمًا من قبرها.

قبل الفجر تهيم مريم بين النخيل.. آلام كنصال صغيرة تنغرز في حوضها.. صداع يفتك برأسها.. الصداع ربما هو الذي أخرجها من البيت.. الآلام تشتت خطواتها.. الموسيقى لا تتوقف.. تعلو على صرارات الليل.. تلمح بومة على فرع شجرة ليمون.. يهوي قلبها في بطنها.. عيون البومة ترصد كل لفتة منها.. هل هي من كلفها بمراقبتها؟ أم أنها مذعورة من عدو خلف مريم؟ يطعنها الوجع خاصرتها مجدداً.. تجري بعيداً.. تبتعد وتشعر بالرطوبة في ملابسها.. ترفع ثوبها فترى بقعة دم مسودة.. تخلع سروالها وتحشره بين فخذيها.. تسير خطوة فيسقط.. تعيد حشره قابضة على ساقيه الطويلين.. تديرهما حول خصرها وتربطهما.. تطرق دماغها فكرة جديدة.. فكرة تُشعرها بالغثيان.. تحاول تضليلها بين النخيل.. الفكرة عنيدة.. كلما فرقت بينهما نخلة عادت ترتطم برأسها: يجب أن تبدلي اسمك.. بيان؟! لا.. محجوز.. موضي.. أبدًا.. موضي يعني عيال وأنف عريض.. مرايم؟ مشعا؟ منية؟ تسمع تصفيقًا حارًا.. تشجيع أو سخرية: منية.. منية.. صح..

تدير رأسها بحثًا عن مصدر الصوت.. تقع عينها على البومة.. البومة بعينيها الفزعتين المرعبتين.. يهوي قلبها في بطنها.. تهرب فتباغتها يد.. تصرخ فتمتد يد أخرى لفمها.. تتفلت وتعوي.. اليدان تحاولان تثبيتها في حوض نخلة بارد.. في الصفير المدوي يأتيها صوت بعيد لا تسمعه.. تتماوت وهو ينفض كتفيها: خالة! خالة!

متأرجحاً بين خوفه وغضبه يخبرها إنها أرعبته.. إنه ترك شقيقته ترجم

نفسها بالاحتمالات التي خطرت ببالها.. يتحدث ويتلفت حوله: هل قابلك أحد؟ تفتح عينيها بعد أن تأكدت أنه ولد موضي.. يرخي قبضته.. يلوي أصابعه أمامها: لم أعرف أين أبحث؟! تسير أمامه.. يتركها تقود طريق البيت صامتة.. في عطفة الدرب الأخيرة تشف الظلمة.. تلمح شطر وجه الفتاة وراء الباب الموارب.. يختفي شبحها ما إن تميزهما.. تدخل مريم فتتلقفها الفتاة.. تحضنها وتبكي.. تتخلص منها.. تريد أن تدخل حجرتها.. تسير خطوتين.. يسقط سروالها المدمى.. تجحظ عينا الفتى.. ينقل بصره بين السروال والخالة.. بين السروال والشقيقة.. ينهار.. يصرخ.. يحاول أن يشق جيبه.. تقبض أخته على يديه.. تسكته.. مريم تحمل السروال وتتجه للداخل.. تتجه لحجرتها.. يتقافز أمامها.. يشد السروال.. يهمس في أذنها «حتى هما يكرهانك»

تسمع ابنة موضي خطوات الرجال في الدرب.. الرجال العائدين من صلاة الفجر.. تدفع شقيقها داخل المجلس.. توجهه لفراشه.. تمدده وهو ينتفض باكياً.. تغطيه وتقرأ ما تحفظ من القرآن.. تضغط بيديها جسده المنتفض.. يرعبها انهياره المفاجئ.. تتساءل أهذا هو المس؟ هل انتقلت عدواه من خالتي لأخي؟ تقرر أن تبخر البيت كله بالجاوي في الصباح.. حين يهدأ تسحب جسدها منهكاً لحجرتها.

***

بعد اثني عشر يوماً

يضحي الضحى والفتى في فراشه.. تطل عليه شقيقته.. تتردد في إيقاظه.. تشفق عليه.. تعود بعد الظهر فتجد فراشه خالياً.. تنتظره في الليل غير واثقة إن كان يجب أن تخبره عما أصاب خالتها حين شمت الجاوي.. تتأخر عودة الفتى.. يتستّر بالظلام لينزوي في المجلس.. تسمعه رغم تسلله الهادئ.. تطل عليه: أنت طيب؟

- ..

- أنت لم تفهم.. كيف أشرح لك؟! الدم..

يسودّ وجه الفتى.. يحمر وجه الفتاة.. إن لم تقل ما عندها دفعة واحدة فلن تقوله أبداً.. تبدأ بصوت متقلقل: الصلاة.. الدم من الصلاة.. عادة للنساء كل شهر.. هو.. إنه ليس ما تعتقد..

يرفع رأسه الغائم.. يزفر زفرات متقطعة متشككة.. يتبدل سواد وجهه احمراراً.. يشبك يديه على ساقين ينصبهما أمامه.. يثبّت نظره في الجدار البعيد.. في زاويته.. بعنف لم يعد له مبرر يقول: ومع ذلك يجب ألا تدعيها تتجول في الديرة.

تنسحب الفتاة.. يتصنم قبل أن يتهاوى في فراشه.. بعد ساعة يقعد في باحة البيت.. تقعد بجواره صامتة.. متقابلين كشيخين في أرذل العمر..

يرمي الفتى أمنيته: ربما يجب أن نعود للوادي.

- وخالتي؟
- لا أعرف.. أريد الوادي.
- لن تذهب طائعة.. وقد تموت إذا نقلناها بغير إرادتها.
- أحسن!

يقذف الكلمة في وجه أخته.. يخرس ممتقع الوجه.. تتغاضى عن عقوقه.. تستجديه أو تغرس فيه بذرة ملامة: لا يجب أن نكون نحن والزمان على خالتي.

تتهدل ملامحها من جديد.. يخيم صمت غليظ.. بعد لحظات يفرقع صوت الفتاة: سآخذ منها عهداً ألا تخرج وحدها!

بصوت ساخر يقول: ولتعاهدك أيضا ألا تضرب الأولاد في الشارع.

باستغراب تسأله: من قال إنها تضربهم؟!

- سمعته.
- لماذا تضربهم؟!

يعترض مقرباً وجهاً أحمر من وجه أخته: لا يهم.. لا يهم السبب إن كنت تضربين صغارًا ليسوا عيالك.

في فراشها تعود للفتاة كلمات الجارة.. تهشها وترجع.. يفر نوم مذعور من فراشها.. تتقلب حتى توجعها جنوبها.. تتساءل كيف تعيد خالتها لعالم القبول.. لقد اعتنت ببيت الوادي وهي أصغر.. اعتنت بأبيها.. مرّضت أمها.. رعت شقيقها.. تحتاج فقط أن تتقرب من مريم..

أن تثق بها الخالة وتسمع منها.. منذ الغد لن تبخر البيت بالجاوي بعد أن رأت كيف يضايقها.. لن تدخل غرفتها دون أن تحصل على موافقة واضحة.. لن تظهر تذمرًا من أي رائحة.. ستتغاضى عن إهمالها الصلاة.. ستصم أذنها عن صوت المسجل وقت الأذان.. ستدعو الله الرحيم أن يغفر لهم جميعاً .. حين تعود مريم الشابة التي يعشقها الجميع ستكون المهمة انتهت.

تضع الفتاة كفها تحت خدها.. ترى مريم أمها.. تطبخان معاً.. تضحكان معاً.. ترقصان معاً.. تخيطان ملابس جديدة للعيد أو لعرس ستحضرانه.. تقيسانها مع بعضهما.

يمرّ بالبيت أسبوع هادئ.. تختم الفتاة مهام النهار قبل أن ينحسر الظل عن الجدار الشرقي.. تقعد بجوار الخالة حول دلّة قهوة قد تجددها مرتين.. تحدّثها بما يخطر في بالها.. تروي للأخ في الليل كل لفتة حسنة بدرت عن مريم.. كل إشارة وأي تعليق.. تقمع طوال الأسبوع رغبتها في تنظيف حجرة الخالة.. كلما دخلتها سجل ذهنها كل قذارة فيها.. تتغاضى عن الغلاف البلاستيكي لبطاريات المسجل ممزقاً مرمياً بناحية.. تصدّ عن رتل نملٍ ينقل فتاتاً لا يُسمح لها بكنسه.. تتعذب بتخيل الحجرة نظيفة.. تقدّر الوقت الخاطف الذي سيأخذه التنظيف.

نهاية الأسبوع تغتنم البنت إشارة لطيفةً من مريم لدخول حجرتها.. تتربع بجوار فراشها.. تسرد ما أنجرته في البيت.. تلحظ أن مريم لا تهتم فلا يحبطها ذلك.. تجرب أحاديث متنوعة وتتلقى استجابات لا مبالية.. ما دامت الخالة لا تدس رأسها تحت لحافها فالأمور بخير.. تنظر للمسجل

الذي يظل يصدح كلّ ليلة.. تقرّر أنه الجسر الذي سيبسط لسان الخالة.. تستأذنها بأن تسمع شيئاً من أغانيها. تبتسم مريم ابتسامتها المسروقة.. تشير بيدها إشارة موافقة خفيفة.. تفهم الفتاة أن لها حرية الاختيار.. تقلّب أشرطة لا تعرف من الأسماء عليها غير بطي البذالي.. تلقّم المسجل أحدها.. تنطلق أغنية.. تلمسها نغماتها.. تحرّك قلبها.. تتمايل في جلستها وتبتسم لخالتها.. تنهض بجسد لم تستيقظ نشواته تماماً.. تغمض عينيها ليلبسها الطرب.. ترتفع راحة يمناها وتميل مع الإيقاع.. تلتفت للخالة مادة يديها قليلاً.. دعوة لا طلب صريح بالمشاركة.. تجتاحها وحشة عارمة.. يرقص جسدها متحرراً من سلطتها.. تنتبه فتقعد بسرعة.. تطفئ الشريط.. تخرجه وقد تخضّلت رموشها.. تلمح في الكومة شريطاً أسود.. ليس له غلاف.. ملصقه الأبيض والأزرق أغراها.. تشغله.. يرضيها أن الأغنية لا تؤلمها.. تنقض ضفائرها لتتنفس النغم الفرح.. تقعد بين يدي الخالة.. تضحك بلا سبب.. تسمع كلمات الأغنية التالية.. يرسم المغني صورة عجوز يشنع عليها:

« تلبس خلاقين شرتهن عهد نوح

تقول جثة هامدة من غير روح

ماتن رفايقها وهي عيّت تروح

أنا أشهد إن الموت معطيها مجال»

تحدق في وجه الخالة.. يبدو لها أن الكلام لا يرضي الله.. تطفئ المسجل وهي ترمقها.. نظرة مريم الجامدة معلّقة بين فراشها وسقف الحجرة.. لا

تعترض على إطفائه.. لا تطلب إعادة تشغيله.. لا تعيد تشغيله بنفسها.. تتبرعم غصّة في حلق الفتاة.. تسأل ابنة موضي خالتها عن العجوز العصية على الموت والتي لا تساوي ريالاً.. من بين كل الإجابات التي لم تتفضل بها مريم تمنت البنت لو أنها لم تنطق بهذه.. قالت مبتسمة: أمه.

ترتعش شفة الفتاة.. تهينها مريم بالردّ.. تدنس ذكرى أمّها هي أيضاً.. تنظر لخالتها متمنية أن تغيّر ولو كذباً تصريحها.. تنسحب لطرف الغرفة.. مريم في طمأنينها غافلة.. الأصوات صامتة وعليها أن تستمتع بالخدر اللذيذ في رأسها.. تعيد ترتيب الأشرطة المبعثرة.. تصفصفها بيديها.. تميلها ذات اليمين وذات الشمال.. تعيدها لاستقامتها.. تقرأ الكلمات على كعوب الأشرطة بتنسيقات مختلفة.. قد نجد رسالة فاتتها من قبل.. فجأة يظهر.. ينبهها أين قعدت بنت موضي.. على العتبة تماماً.. تحاول مريم ألا تنظر ناحيتها.. الأجساد التي لا تراعي الخطوط تثير إحساساً مزعجاً في مسام جلدها.. مؤخرة البنت مقسومة بالخط قسمين.. تفرك مريم أصابع يمينها داخل كفها.. تكحت بتكرار يتسارع ظفرًا تلو الآخر بإبهامها.. تخفي كفوفها في ردنها.. ينزوي غاضباً بين الملاحف في أقصى الغرفة.. يلفّ طرف ملحف حول وجهه.. بصوت بارد يلقي ملاحظته «تتعمد ذلك» تعضّ مريم شفتها.. تنهض وهي تحكّ جانب وجهها.. تدور في الحجرة.. تقترب من الباب.. تحسب البنت أنها تريد أن تخرج فتقوم لتفسح لها المجال.. تجد الخالة نفسها في باحة البيت.. تنسى السبب.. يشي بابنة موضي «غسلت عباءة مريم» تلمحها على الحبل منشورة.. يوغر صدرها «تقول إن عباءة مريم قذرة مثلها» تسحب العباءة وتخرج.. يقابلها الفتى بالباب: إلى أين؟

- ...

تتبعثر خطوته.. يركض داخل البيت.. يلمح أخته على عتبة حجرة الخالة.. المسجل يغني بصوت مرتفع.. يركله بقدمه: لم يمض على وفاة جدتي أسبوعان.

لا ينتظر رداً.. يجري في إثر الخالة.. تسير وهو في ساقتها.. تسمع الأنفاس خلفها فتهرول.. تهرب من مطاردها المجهول.. تتخيله يخنقها.. تراه يهوي على رأسها بحجر.. يغرقها في بركة.. يمرّ الاثنان بمسجد الحي.. البراحة الكبيرة.. الهدائم الخربة.. أطراف النخيل.. يجهدها السير والقلق فتقف.. تنسى أين تريد.. يحاذيها: خالة نرجع للبيت؟

تستدير ويعودان.. تقبل على البيت وينقبض صدرها.. تطل في حجرتها مشرعة الباب فيصرخ «نهبوك» المرآة معرّاة.. الرداء مسروق.. الزهور البلاستيكية اختفت.. فاتيتها مفتوحة.. علب البخور.. البطاريات.. ابنة موضي سرقتها.. الولد أخرجها من البيت والبنت سرقتها.. اللصان..

تفرك مريم كبدها بالجدار.. ينفض بكاء أبكم جسدها كله.. يسأل الولد أخته: ما بها؟

تبلع الفتاة تفسيراً تأمل ألا تضطر لتقديمه.. تبعد الخالة عن الجدار وقد أبيضّ برقعها.. تنفض مقنعتها.. بين شهقات مكتومة تتمتم مريم مرددة حاجاتها المسروقة.. ينظر الفتى لشقيقته.. تجري لتجلب الرداء.. تحاول دسه في كفوف الخالة التي لا زالت تبكي.. تنطلق صوب المطبخ وترجع بالأصص في ردنها.. تعرضها تحت نظرها.. يتدحرج إصيص

وهي تعتذر: أخذتها أغسلها.. خالة! كانت مغبرة.. غسلتها وسأعيدها مكانها.

- بطارياتي.. بخوري.. ذهبي..

يلعن الفتى شقيقته.. تدور البنت بينهما وتقسم: لم ألمس الذهب.. والله! تأكدي يا خالة.. البطاريات فارغة.. صدقني.. ليس في الحجرة بخور.. بطاريات وعلب فارغة.. والله إنها فارغة.. لن تستفيدي منها.. لا يمكنها أن تستفيد منها.. رميتها مع النفايات.

تستدير البنت تماماً لشقيقها ضامة أصابعها العشر لشفتيها كأنها تنزع الحكي منها: والله إني لم ألمسه.. الذهب لم ألمسه.

يأمرها بأن تخرج ما في القمامة.. يعرضان تحت أنظار خالتهما مفقوداتها الرخيصة.. تعافها وتبحث بنفسها.. تملأ الحجرات عبرات مخنوقة.. حين تنزوي في حجرتها أخيراً ترفض الطعام.. ترفضهما.. يقفان أمام بابها يتشاجران.. يهمس في أذن مريم «يتآمران» يريدها أن تكتشف ما يخططان له.. الموسيقى تقاطعه وتقاطعهما.. لصوص آخرين توافدوا أيضاً.. لا تراهم لكنهم جميعا يتآمرون.. ضجيج أصواتهم المتداخلة يشق دماغها.. لا تميز جملة تامة.. حين يسكتون أخيراً يبقى هو.. يبرز من إصبع قدمها الكبير.. ثرثرته أعلى.. تفكر إن كان سيخرس لو بترت الإصبع..

في باحة البيت تستسلم الفتاة وتقر أنها أخطأت.. أخوها لا يتوقف عن السؤال: لماذا؟!

لا يبدو أن أي ردّ سيقنعه.. تنهار باكية.. يصبح بكاؤها شهيقاً.. تلوذ بحجرتها.. ترعبه نوبات البكاء لا يعرف كيف يوقفها.. يتبع أخته دون

أن يكون لديه ما يقول.. تغلق الباب في وجهه.. تنزوي في فراش الجدة.. تصطف الكلمات المناسبة على لسانها: لا يقبل مني غلطة وهو يخطئ طوال الوقت.. فيم أخطأت؟! نظفت حجرتها الوسخة؟! أفعل كل شيء لأقترب منها.. أجاريها وكأنها هي الصغيرة.. أغمض عن شكها في كل حركة مني.. رفضها الحديث معي بالساعات.. ربما أخطأت.. ربما وسوس لي جنيها لأغضبها كما أغضبتني.

تنهي مريم عد البطاريات الفارغة.. حسبتها عشرات المرات.. تنقلها من جهة لجهة.. تقسمها في مجموعات كل خمس حبات في مجموعة.. تعد المجموعات.. تعدها فرادى مرة أخرى.. ترصها تحت الفاتية وهي تعدها.. هو غير متأكد من دقة مكانها.. ترصها ويبعثرها.. تقاوم رغبتها في إحصاء الذهب.. تالي الليل ترمي جسدها في فراشها.. تغمض عينيها.. في العتمة تومض الصورة المؤذية.. نصل سكين رهيف يشرط حلقها.. تحمي عنقها بيمناها.. يشرط فخذها.. تميل على جنبها لتلصق فخذها بالأرض.. يشرط ظاهر كفها.. ينبض الألم في محجر عينها اليسرى.. يشرط السكين مقلتها.. تنام على وجهها.. تضغطه على المخدة.. بعد فترة يسحبها الظلام الكثيف.. تجد نفسها في حجرة تحت الأرض.. جدرانها أحجار مربعة كبيرة مسودة.. لا نافذة ولا مخرج غير باب حديدي واحد.. الباب مغلق بقفل نحاسي ضخم.. مفتاحه طويل تنبعث منه رائحة صدأ نفاذة.. على الجدار المقابل للباب ولد أسود البشرة.. مقيد بالسلاسل.. عارٍ تماماً.. تجلده ثم تغتصبه وهو يصرخ.. يصرخ ولا ينجده منها أحد..

***

بعد شهر وعشرين يوماً

- لماذا تذهب للوادي؟
- هناك من يريد شراء البيت.
- ستبيعه؟
- أنت لا تريدين أن نعود له..
- ...
- سأذهب لأريهم البيت.. لا فائدة من تركه.. ونحن نحتاج نقوده.
- إن كان معك دراهم، أحضر فاكهة.. ستزورنا جارات جدتي.
- ستقابلهم خالتي؟
- أتظن أنها لن تخرج لهن؟ كلمها إذن.. ستخجل أن تردك.

الفتى أخذ من مريم وعداً بأن تستقبلهن.. وأوحت لها الفتاة ألا ترتدي من ذهبها شيئًا أمامهن.. خرج الفتى وذهبت الفتاة ترش باحة البيت لتكنسها.. باتزان غريب عليه أبدى رأيه.. قال بجدية إنه مضطر لتأييد البنت في شأن إخفاء الذهب «حتى لا تصيبك أعين الضيفات الحارة»

في الحلقة حول القهوة سفحت النساء دموعاً غزيرة.. بكين الجدة.. أثنين على الفتاة.. ترحمن على أبويها.. تذكرن شيئاً من سيرة موضي.. ملامحها.. خصالها.. راجعن مع بنتها الرواية التي وصلتهن عن سبب

وفاتها.. سألن عما تركته وشقيقها خلفهما في الوادي.. افترضن أنهما لن يعودا هناك أبداً.. امتدحن بِرّهما.

مريم الجزء الناتئ في حلقة النساء.. النقطة التي توشك الدائرة أن تنفقئ فيها.. متنحية عن الأجساد المتقاربة.. بعيدة عن الحديث.. عن البكاء.. عن الضحك.. الضيفات طوال ساعة يعطين الفتاة ألسنتهن وترصد أعينهن خالتها.. تشفق البنت على مريم.. لو كانت مكانها ما احتملت نظراتهن.

مريم مشغولة به هو.. مزاجه رائق جداً.. يتقافز بين فناجين مصفوفة أمام النساء بغير انتظام.. يشب على ساق واحدة.. يبدل تعابير وجهه مع كل قفزة.. تكتم ضحكتها.. تنتظر اللحظة التي يريق فيها فنجاناً أو يطأ قدم أو فخذ إحداهن.. يحجل خارج الحلقة.. يحثو قليلاً من تراب الباحة على طرف الحصير.. خلفها مباشرة.. تستدير بشطر جسدها.. تنفض التراب بيدها.. ينبهها أنهن جميعاً ينظرن إليها.. تغمز لها الفتاة.. بدل أن تعود في دائرتهن تنهض.. يغش أحياناً فيبدل بين قدميه.. يصرف انتباه مريم «يراقبن مشيتك.. يسخرن منها» تسمع وهي تغلق الباب أول همسة: بشّرينا.. كيف هي خالتك الآن؟

ترد ابنة موضي: طيبة ولله الحمد.. أوجعتها وفاة جدتي.. لكنها مؤمنة بقضاء الله.

يأمرها أن تخلع الثوب الذي ألبستها إياه الفتاة.. يتحداها أن تنظر لنفسها في المرآة.. ترمقه بسخرية.. كيف لم ينتبه أن البنت أعادت الرداء مكانه وربطت أطرافه حول حواف المرآة كي لا يُسقطه بسهولة.. تريد أن

تشغل المسجل لتخرس الأصوات كلها.. تتذكر وعدها للفتى فتتراجع.. ترد ذيل برقعها على أعلاه فوق رأسها.. تنام نومة قصيرة مزعجة يوقظها منها «خرجن وأنت نائمة» تنقلب على جنبها الآخر «ذكرنك بالسوء عند البنت»

تحصي تجهيزاتها للعرس.. يزعجها هاجس القطعة الناقصة.. لا تعرف ما هي.. ربما ثوب.. أو محزم ذهب.. قد يكون ميقعة الثلاثة أصواع.. حصة ماتت قبل أن تكمل التجهيز.. ابنة موضي قد لا تعرف كيف تستقبل الخاطب أو تجهز لعرس.. يجب أن تخبرها أن كل شيء تم مسبقاً.. إنها سترحل لأقصى الأرض.. في مدينة يحب أهلها مريم وتحبهم.. جارات حصة لا يعرفن طريقها.. رجال البلدة سيتوهون لو حاولوا الوصول إليها.. قد يزورها أبوها هناك.. أبوها يفهمها.. مريم بإشارة منه تفهم.. سيغني لهم المغنون طوال الوقت.. مغنون يطربونهم ويخشون زوجها.. يخشون أباها أيضاً.. لن ينطقوا بكلمة غير مسموح بها في حضورهما.. تغفو لتصحو على طرقات بابها.. الولد وأخته.. تواربه وهي تسوي برقعها على وجهها.. يبادر الفتى: العشاء يا خالة.

نظرتها الخاوية ترجعهما خطوتين للوراء.. تدير ظهرها.. تهوي في الفراش.. ينظران لبعضهما.. يغادران.. تدخل البنت المطبخ ويلحقها باستفهام قلق: هل أحرجتك بينهن؟

تهز رأسها نفياً.. تردف بإحباط: لكنها كانت هادئة.. لم تشارك في الحديث.

- يبدو أنك ميالة لتصديق ما قالته الخبيثة عنها.

ترش البنت بهاراً على وجه ماعون العشاء.. لم يعد ما قيل وشايةً يتيمة.. لن تخبره بما أضافته الجارات.. اللحظة غير مناسبة.. تحمل السفرة ويحكي عن يومه.. تنزع رأسها من حديث نفس لم ينقطع مذ خرجت النساء.. تعرض أمامه حجة كان يجب أن تسكتهن بها: من يحق له أن يحكم بأن فلاناً عاقل؟ ومن يدري كيف يبدو المجانين؟

يسألها بابتسامة مستغرباً: من تطرق لسيرة الجنون؟!

تحاول دفع غصة بلقمة خافضة رأسها.. يرى شفتها التي ترتعش فيؤثرها بقطعة لحم يلقيها في جهتها من الإناء.. يلعن النساء جميعاً في خاطره.. يبحث عن كلمة تطمئنها: أنا وأنت نعرف مجنوناً.. وهو ولله الحمد لا يشبه خالتي في شيء.. أتذكرينه؟ ابن حنيف.

- الذي يحوم في شوارع الوادي من شروق الشمس حتى تغرب؟

- هو بعينه.. هههه.. كان يتخيل إنه يسوق سيارة.. أتتذكرين طاسة عجلة السيارة التي لا يسير إلا بها؟ كان يديرها كمقود إذا أراد أن ينحرف يميناً أو شمالاً.

تشم مريم رائحة الطعام فيباغتها الجوع.. تقترب منهما.. تمسيهما بالخير.. يلتفت لها الفتى فتقعد بجوار البنت.. يدنيان الإناء منها.. تأكل معهما خافضة رأسها.. يغمز الولد لشقيقته.. ينبهها لشهية مريم المفتوحة ويبتسمان.

ينهض الفتى فيدعو لجديه بالرحمة.. سيرة الأب ذكرت مريم كم جزعت بموته.. قالت إحدى الجارات تواسيها إن الدعاء وحده هو ما يصله من عالم الأحياء.. باتت تبتهل لله أن تراه في حلم.. مرت سنوات

جففت على لسانها الدعوات وأمل الإجابة.. قبل أشهر من موت حصة بدأ يظهر.. في الليلة الأولى لم تصدق فاستيقظت ما إن لمحته.. ثاني ليلة حضر.. وقف بعيداً.. في الليلة الثالثة أيضاً.. بعد أسبوع تندم مريم على مآل أمنيتها.. كل مرة تستقبل الأب الحُلمي بصراخ فظيع.. تصرخ في وجهه ثم تصحو قانطة.. زيارات الوالد غير المرحب بها تحرمها النوم.. بعد مدة صار الصراخ وظيفته.. يبدأ الحلم بأي مكان وأي أناس وفجأة تراه.. يظهر باركاً على ركبتيه يصرخ على الناس.. لا يخفف توجيه الصراخ لآخرين ألمها.. عادت تأمل أن تموت أحلامها به.. حين غابت حصة أخذته معها.. الليلة رجع.. لم يصرخ عليها ولا على سواها.. يسير وتمشي في إثره.. تسرع إن أسرع وتبطئ إن ثقلت خطوته.. تتبعه حتى يختفي.. تستجيب للخدر في رأسها وقدميها.. تتهاوى في مكانها..

قضى الفتى الليلة يطارد خالته والهواجس.. عاد بها قبل الفجر.. لم يلمحهما غير رجل واحد.. رجل واحد في البلدة قد يعني الناس جميعاً.. في الصباح خرج دون صوت.. ضحى كان ورجلين آخرين يبدلون باب البيت.

مريم سمعت أصوات الاقتحام.. شمّت رائحة اللصوص.. أغلقت باب حجرتها.. قد يكسرونه ويدخلون.. تفكر في ذهبها.. ليتها خبأته.. تريد أن تحفر حفرة تخفيه فيها.. تخطر ببالها الفتاة.. لم تسمع لها حساً.. يهمس «هي أدخلتهم» مع ارتفاع أذان الظهر غادر المقتحمون.. سمعت الولد والبنت يتشاجران.. تفتح بابها وتخرج متوجسة.. تتبع رائحة الأجساد الغريبة.. تقودها لباب البيت.. تجده مخلوعاً.. مسنداً على جدار المجلس.. في مكانه واحد مختلف.. بنت موضي مقعية تكنس..

تخفي وجهها.. مريم تنظر للباب في وقفته المائلة.. تنتقل للباب الجديد.. تمس صفائحه التي سخنتها الشمس.. تحاول فتحه.. لا ينفتح.. تلتفت للفتاة.. تدعي أن المفاتيح مع شقيقها.. يصرخ في رأسها «حبسوك» تغرز أظافرها بين الباب وحلقه.. تزيحها البنت عنه.. تحذرها أنه قد يدمي أطرافها.. تفاوض خالة لا تتزحزح: وأين تذهبين الآن؟! الشمس تسيل نافوخ من يمشي فيها.. بعد العصر اخرجي حيث تريدين.

يفح في أذنها «تخدعك» ينبهها للمفتاح القديم ملقى وراء باب الخشب «استعمليه» تدس رأسها ومنكبيها تحت الباب المسند.. يتقلقل فتقفز الفتاة لتثبته قبل أن يسقط عليهما.. تخطف مريم المفتاح.. تجربه في جمجمة الباب المختلفة.. تتجاهل من تدعي أنها تصارع الباب الخشبي لتلهيها.. تهوي البنت والباب على الأرض.. تسمع خبطتهما.. إرشاداته أعلى من أنين البنت.. تشوشها ببكائها.. يخبرها أنها على وشك فتح الباب.. تقلّب مفتاحاً كفرشاة أسنان.. تطعن الجمجمة به بيأس.. تنكسر واحدة من أسنانه.. تحشرها في الفتحة.. تدقها بالجزء العريض من المفتاح.. يتكسران.. تطرق الباب بيديها.. تسمع حركة وراءه.. في جمجمته من الخارج.. ينفتح فترمي جسدها في فتحته.. يتلقاها الولد.. يردّها وهو ينظر للمكان.. يقفل الباب قابضاً على ساعد خالته.. تداري أخته ألمها.. يسألها: كيف سقط عليك؟

تدفعه دون كلمة.. يلمح رضة مسلوخة في ساقها.. يتحسس الموضع بحذر: انكسرت؟ تضرب يده لتبعدها: أسلمني الله يا ملعون! يوقفها على قدميها.. مريم وراءهما تريد أن تفتش جيوبه بحثاً عن المفتاح.. تخشى أن يؤذيها..

يسند الفتى أخته ويناجيها.. ترد: وحبسنا يرضيك؟!

- أتركها تسري كل ليلة؟!

- تستحي منهم فتحبسنا.. ألا يسري الجاثوم بهم؟!

يتغير صوته.. يختنق: ليس جاثوماً.. أعرف الجاثوم.. ليته الجاثوم.

مريم تسير خلفهما.. يدس أصابعه القصيرة في جيب الولد.. لو سحب المفتاح من جيبه ستخرج.. يفشل في سرقة المفتاح من الفتى.. يقطع الشقيقان رمضاء الباحة.. الفتى يحيطها بيديه.. يسألها: ألم أكن باراً بأهلي؟! لماذا يعاقبني الله هكذا؟!

- استغفر!

مريم تتبعهما.. عند باب غرفة حصة تقف.. يدخلان وترتد لحجرتها.. يرمي القبيح الصغير نفسه في فراشها.. تقعد مستندة للجدار بجوار النافذة.. تشرعها قليلاً.. تلمح بطرف عينها حصة في الباحة.. ترد ضلفة النافذة الخشبية ببطء.. تسير هي في الباحة.. تقطع أرضاً تجهلها.. عشبها رقيق السيقان مسفوع.. للهواء رائحة برسيم مجزوز.. فجأة تهوي.. تهوي بجوار جرفها الصخري المعهود.. تهوي بلا أمل حتى في ارتطام.. يجب أن تصرخ لتصحو ويتوقف السقوط..

***

بعد سبعة أشهر وخمسة أيام

دخلت الخطابة بيت آل خليفة صديقة عتيقة لحصة.. كان صعباً أن تنقطع عن البيت بموت صاحبته.. بكت حين دخلته بعد غيبة.. قالت إن العودة له صعبة.. قالت إن الامتناع عنه أصعب.. قالت إنها اشتاقت له.. قالت إنها تحن لسيدته الراحلة.. في الزيارة الأولى تقول إنه كان من البيوت التي لا تحتاج عذراً لزيارته.. ابنة موضي تتعهد أن يظل كذلك.. تحمد الله أنها أجبرت شقيقها ألا يغلق بابهم إلا ليلاً.. في الزيارة الثانية أكّدت الخطابة إنها أول من اتصل بهم ليعودوا.. في الثالثة أخبرتها إنها وعدت حصة ألا تترك مريم.. لم تحتج البنت هذه التأكيدات.. تحتاج زائرة دائمة كالعجوز.. تحتاج أمًّا أو جدة في هذه الديرة.. قد تسرق الخطابة نهارها كله لكنها تحييها هي والبيت.. في زيارتها السابقة انتبهت ابنة موضي أنها قضت يومين قبلها لم تنطق كلمة.. مريم نادراً ما تفتح فمها والأخ قد لا يقابلها على وجبة.. مع ارتياحها لها كانت تتحفظ أمامها.. تغلق الغرف وفمها.. تجمّل البيت.. تجمّل تفسير الأحداث التي تقع أمامها.. تجمّل الحكي.. تجمل حتى هواجسها إن أفصحت عن شيء منها.. التجمل هو ما يحتاجه كل بيت.. وهو أصعب في غياب الزوار.

تقف الخطابة في باحة البيت.. تكمل سلامها والبنت تفرش الحصير.. تعبرهما مريم عائدة لحجرتها.. تقطر ماء.. ثوبها ملتصق بملابسها الداخلية.. تلاحظ الخطابة أن وزنها لم يزدد.. تعلّق فتدرأ البنت تهمة

التقصير: لا تأكل كثيراً.

حركة مريم تبدو ثقيلة.. حفيف الثوب وهو يحك سيقانها مسموع.. تسأل الخطابة الفتاة: تستحم بشلحتها؟!

- خالتي تستحي حتى من ظلها.
- أنا أشهد.

في رأس الفتاة اعتراف شائك.. مريم لم تستحم حتى هددها الفتى.. انزعجت منه ثم سكتت حين رأتها تنقاد له.. صوته الذي يدّخره للأوامر يشعرهما بقشعريرة.. تحمد الله أن الخطابة حضرت بين دخول الخالة الحمام ومغادرته لعمله.

تقف مريم وسط حجرتها الخاوية.. يسرد بحنق لا ينطفئ مسروقاتها «المسجل.. ميقعة صاعي البر.. البطاريات.. الذهب.. ميقعة الصاع.. الأشرطة.. سرقوا عباءتك أيضاً» تطل بشطر وجهها.. تستدعي ابنة موضي بإشارة من يدها.. تهبّ لها البنت.. بصوت خفيض مشروخ تشكو لها مريم: أغراضي؟

يتأجج غضب الفتاة.. تبني وأخوها يهدم.. يخطئ ويتركها تنسج عنه تبريرات متهلهلة.. بدل أن تجيب بوضوح تدعوها لشرب القهوة مع الخطابة.. ترفض مريم بصمتٍ وتقعد وسط الحجرة.. تجرجر البنت خيبتها للباحة.. تأخذ لها فنجاناً وتمرات.. تعود فتسألها العجوز عن الأغراض التي تريدها.. هذا أكبر عيب فيها.. تسمع دبيب النمل.. لا تعرف الفتاة كيف تجيب دون أن تفضح الانشقاق بينها وبين أخيها.. تخبرها إن الغرفة مكتظة.. تستشهد بعقرب أسود خرج عليهم من بين

ملاحفها.. خالتي لا تدعنا نلمس شيئاً.. قال أخي: سنفعل ذلك مرة واحدة.. نخلي حجرتها من جهاز عرسها كله حتى يحين الموعد.

الخطابة تطلق سؤالاً متفاجئاً: أي عرس؟!

تجيب البنت أو تسأل: خالتي! عرس خالتي؟

تطالب العجوز البنت بسرد المقتنيات كاملة.. تقودها للباب الصغير تحت الدرج.. تبرك الخطابة أمامه تفحص المكدس في ظلامه.. تخبرها ابنة موضي أن أخاها اختاره ليخفي ما لم يتخلصوا منه.. عادت الخطابة لباحة البيت.. تشرب القهوة صامتة.. عينها على حجرة مشرعة كخطيئة ساعة عرضها على الربّ.. عينها الخبيرة لم تحسم الأمر.. لا تدري أتشعر بالخديعة لأن خطبة أخفيت عنها؟ أم بالحرج لأن التجهيزات البائسة بذرة حيلة قديمة أنبتت شجرة زقوم؟

تشرح بكلام يبدو غريباً حتى على دماغها الذي صفصفه: مريم كانت تخطب وجدتك لا تقبل.. تريد لبناتها خيرة الرجال.. لا أعرف خطبة تمت.. ليس على يدي.. كما أن جدتك يرحمها الله لم تحدثني عن خطيب لم آت به.

- فما هذا الجهاز؟

- لا أعلم.. كنا.. كانت جدتك تخشى العين.. كنت أوصيها ألا تنشر أخبارها قبل أن تتم.. لم تكن تحسن حفظ الأسرار.. لا أعرف إن كانت طبقت نصيحتي علي وسترت الأمر عني.. أو.. إنه.. كنا قد فكرنا في شيء وربما نفذته.. لم تكن موافقة.. لم تخبرني.. بعد تعب خالتك صرنا نجرب.. نحاول إخراجها من عزلتها.. قلنا.. ظننا.. بدت حزينة..

حسبنا زواج رفيقاتها السبب.. تزوجن وأنجبن بدل الطفل ثلاثة.. ظننا أن عرساً منتظراً سيشرح صدرها.

تسكت الفتاة.. يتوازن صوت الخطابة بعد أن قطعت نصف مشوار الاعتراف: صاحباتها بنات قبائل.. المتأخرة منهن تتزوج في السابعة عشرة.. ظننا أنها تحسدهن.. أنها حسبت بها عيباً فانطوت.. خططنا بأن نقول لها إن خاطباً جاء من خارج البلدة يريدها.. جدتك لم ترغب بفعل ذلك.. ظننت أنها لم تقل شيئا.. هل قالت؟ جرّبت؟ لم تخبرني.. هل جاء عريس وأخفت خبره عني؟ لا أعلم.. اسألي خالتك.

تريد البنت أن تتغاضى عن اعتبارات الخجل.. أن تصرخ كيف تسأل خالتها إن كان خطيبها حقيقياً أم مكذوباً؟! تمدها الخطابة بفنجان مُدبس الحواف: جدتك عاشت وضعاً مراً.. لم ترد غير مصلحة بنتها.

تملأ البنت الفنجان ويخيم الصمت.. تغمس الخطابة رؤوس أصابعها الدبقة في سائله ثم تلعقها: لم أنتبه لخالتك قبل زواج أمك.. هههه لا أنتبه للبنات حتى يصبحن جاهزات للعرس.. لم يبد إن خالتك حلمت كباقي البنات بالزواج.. لم يظهر عليها مرة أن فتى أعجبها.. جدتك قالت لي مرة إنها ظلت تلعب مع الصبية حتى بعد أن شوّك ثديها.. وفي يوم غازلها ولد بكلمة فلطمته.. ثم لم تعد تلعب معهم.

تلتفت البنت لباب حجرة مريم.. تتخيل معشوقة طفلة تصفع صبياً مغرماً.. تكمل الخطابة: لمت ساعتها حظي.. فكرت بألا نصيب لي في بنات صاحبتي.. الأولى تزوجت على غير يدي.. والثانية لن تتزوج!

تقوم البنت متذرعة بحاجتها للتأكد أن اللبن قد راب.. تفحصها الخطابة بحكم العادة فقط.. ليس لديها خطط جاهزة لتزويجها.. رجال الحضر في البلدة قليل.. وهم لسوء الحظ لا يعددون الزوجات إلا نادراً.. والفتاة تعتني بخالتها وشقيقها.. ربما يتزوج الفتى أولاً.. توظف الآن ويجب أن يتزوج.. حين ترعى أنثى أخرى مريم ستجد للبنت زوجًا يستحقها.. تقوم على كفيها وهي تفكر هل خطبت مريم وأخفت حصة الأمر عنها؟! تودع فتاة المطبخ.. تشعر البنت أن من حقها أن تدعي أنها لم تسمع.. بعد قليل تعود لباحة بيت خاوية.. تقف بكتفين ينحنيان على صدرها.. تحمل الدلة وفنجانها لحجرة مريم.. تريد أن تسألها عن العريس.. تملأ فنجانين وتتحدث في أمور أخرى.. ترسم للخالة الوادي الذي قد لا تراه.. بعد نفاد القهوة.. تستغل هدوء مريم فتقعد وراءها.. تعتقد أن الكلام سيكون أسهل إن لم تواجهها.. تتأمل الجسد الهش.. يجتاحها شعور غامر بالشفقة.. تقبل عظم ترقوتها العاري من اللحم.. تخفض مقنعتها برفق.. تنقض ضفيرتها المنفوشة.. تتخلل عقد شعرها بأصابعها.. المشط يؤلم فروة رأسها.. تضفر شعر الخالة وتنساب دمعة على خدها.

عين مريم مصوبة نحوه.. في الزاوية يقلّد أباها وهو يرقع ميقعة مكسورة.. تدرس كل حركة منه.. تأمل أن يخطئ في حركة أو ينسى تفصيلاً.. تصفق بيديها وهي تنبهه وتنتقده.. يغضب جداً.. يرمي الميقعة المتخيلة.. يتبول على فراشها.. يغرق مخدتها.. يقترب حبواً فتكف ساقيها الممدودة.. تتنهد الفتاة.. سئمت كل هذا التغاضي.. عليها أن تسأل.. تتجاهل شعر جسمها الذي يقف كله.. تبلع ريقها: ماذا ترين يا خالة؟

تحك مريم منابت الشعر تحت ضفيرتها.. عيناها تتبع حركته في الحجرة.. تلح البنت: صفيه.. من يشبه؟

- يشبه نفسه..

بعد لحظة تستدرك: أحيانا يأتي بآخرين.. يشير لها غاضباً بأن تخرس.. يمتزج في صدر الفتاة رعب بحزن.. تنسحب متمتمة بالتعاويذ التي تستطيع تذكرها.

يلحق الفتاة.. تتنفس مريم براحة.. يهدأ المكان.. يخفت النور.. يغشاها خدر كسول.. يلعب بأجفانها.. يعشش في رأسها.. تطفو في الفضاء وجوه متعددة.. وجوه مجوفة كأقنعة.. أقنعة نحاسية براقة مشغورة الأعين والأفواه.. تقترب منها.. يرتطم بها بعضها.. تهشها بيد تنملت.. تعود بأعداد أكبر.. تدخل مريم غابة الوجوه..

***

بعد ثمانية أشهر وستة عشر يوماً

في لهيب هاجرة صيفية.. مريم تحت عشة في وسط النخيل.. تحتها بساط وبري أسود.. تعبث به ريح عاتية.. يمتد طرفه سوطاً شيطانياً ليلطم وجهها.. تسمع صراخاً.. تحاول تمييز الجهة التي يأتي منها.. تجري صوبه.. أقدامها حتى الظنابيب تنغمر في رمل حار.. تجد سيارة تالفة غاطسة في كثيب.. بابها مخلوع.. في السيارة أطفال.. طفل منهم يصرخ.. آخر يوشك على الموت أو مات.. يرفرف ثالث بيديه: ومعنا كلب..

لا تعرف إن كان يريدها أن تنقذ الكلب أو تحذر منه.. تحصي الصغار الواقفين مرصوصين في المقعد الخلفي.. تبحث عن الكلب.. لا مختلف بينهم إلا طفلة.. طفلة أقصر منهم قليلاً وأغمق بشرة بدرجتين.. خداها السمينان مشعران.. ترفع مريم البنت/ الكلب.. مع أن صراخهم تلاشى تركض بها.. تركض لتنقذها.. تركض في الرمل.. تركض في الحجرة.. تركض في البيت..

- العظام تتهشم.. التنفس ليس مسموعاً..

الجري/ الأنين الحاد/ أنصاف الجمل غير المفهومة عادات توشك مريم أن تفقدها.. تلاحظ ابنة أختها انخفاض تواترها.. نظر الخالة أيضا يضعف.. يضعف ويسرق باقي الجرأة في خطواتها.. تتلقفها البنت.. تأخذ رأسها المشوش على صدرها.. تهدهدها.. تقرأ آيات من القرآن في

سرها.. لا تحتمل الخالة أي همس حولها.. تنتفض الآن كعصفور مبلول بين يدي البنت.. تشعر بآلام الكلب الطفلة في مسامها.. تنتظرها الفتاة لتهدأ.. تحجم عن سؤالها حول الأجساد المهشمة المشرفة على الموت.. تخشى أن تندم.. تفسيرات مريم الشحيحة تملأ قلبها بالأشباح.. حتى قرينها تجرأ فزار حجرة البنت قبل ليال.. في عمق أحلامها دخل فجأة.. قبض على كاحلها.. فتحت عينها قليلاً فرأت يده الحرشفية الخضراء تنفض كاحلها.. رأتها ترتفع.. سحبت أطرافها بسرعة.. كورتها تحت أغطيتها.. قرأت آية الكرسي سبع مرات.. نفث في وعيها: حتى لو قرأت البقرة كاملة!

لن تخبر شقيقها.. ليس لأن العمل سرقه.. ولا لأن البلدة الجديدة جففت لسانه ووجهه.. لن تخبره لأنه ينجح في جعل كل ما يسمعه خطأ خالته.. وكل حدث يفاقم المسافة بينهما.. لن تحدث الخطابة.. ستشيع أن البنت جنت مثل خالتها.. كما أن العجوز تغيرت.. الحديث معها فقد طعمه من طول المضغ.. الوقت والجهد الذي تستهلكه كل قعدة صار يثقل عليها.. أحيانا تحسب نفسها أمها وتملي أوامر.. تثقل على البنت لتكون حصة.. تقول إنها تمر بالبيت لتجد ريح الجدة.. تردد الكلام إن دخلت فلم يقابلها ريح البخور.. تقول إن بيت آل خليفة بيتها.. تبتهل أن يظل عامراً.. تقول إن طعم القهوة لم يتغير.. تقر بذلك للبنت.. رغم إرهاقها للبنت أحياناً إلا أن غيباتها أصعب.. يطول اليوم.. أعمال البيت تثقل.. القهوة تبرد مهما جددتها بنت موضي.. تعاندها البهائم أو يقل حليبها.. كل ما تتمناه هو ألا تغمرها بحكايات الأعراس وأوصاف البنات المرغوبات.. تحشو رأسها بخيالات البنات وأوصافهن.. بنات

القبائل والحضر والسمر أيضاً.. ما فائدة ذلك وهي لا تراهن.. قبل الخطابة لم تكن تفكر فيما يريد الرجال في المرأة.. لو سئلت لاعتقدت أنهم جميعا يريدون جميلة بيضاء شعرها طويل.. تفاجئها الآن مواصفات أو احترازات الذين يعرفون جيداً ما لا يريدونه.. الهاربين من أشباح أمهات/ طليقات/ حبيبات غادرات.

تتغير البنت فلا ينتبه أحد.. جسدها يمتلئ.. مشيتها تختلف.. أقمشة ثيابها وألوانها تتبدل.. روحها تهرم.. تتساءل لماذا لم ترغب مريم في الزواج من قبل؟ تسامح جدتها إن كانت لوحت لها بخطيب وهمي لتحييها.. تود لو تسأل مريم إن كانت قد فهمت الخدعة فانفرط عقلها؟!

يبلغها الأخ أنه سيتغدى معهم.. تذوق الوجبة عشرات المرات.. تضع كل ما لديها من خضار.. تزيد كميات الشريح كل مرة ترفع فيها غطاء القدر.. على الوجبة يتقابلون.. تأكل الخالة خافضة رأسها.. لا يسمعان غير مضغ بطيء.. تحكي البنت عن حكاية لا صدى لها.. تروي أطراف أخبار البلدة التي وصلتها.. لا يشارك الأخ إلا بتصحيح معلومة.. تتحدث عن غنمة عندهم ولدت.. يختلس نظرات لخالته المنكفئة على نفسها.. كتفاها أعلى من رأسها.. كلما أوشكت على النطق بكلمة ردّتها.. مرة واحدة برقت على وجهها ابتسامة وانطفأت.. مثل سيجارة تشعل في توقيت خاطئ فتداس قبل أن يلمحها الأهل.. ينهض سريعاً.. يطل من جهة المجلس.. يعلن أنه ذاهب للوادي.. سيعود بسرعة لأجل استلامه.. ستكون مناوبته ليلية تمتد لظهر الغد.. تود البنت لو تزور الوادي مثله ولو لمرة.. يسألها عما يحتاجه البيت.. تسمع مفتاحه يدور في الباب.. تخالفه وتفتحه.. تعود فترفع سفرتها وتذهب.. تقبل على مريم بإناء

فيه ماء.. تغطّس أصابعها النحيلة.. تفركها ويتكدر ماء كان صافيا قبل لحظة.. تزيل لعاب الخالة عن الأصابع.. تتأمل يمناها مغمورة في سائل لم تعد واثقة أيهما أنظف.. تطوح بالإناء لتنثر ماءه في باحة البيت.. ترتسم دائرة ندية منبعجة.. تتبخر أطرافها وتبقى بقايا طعام صغيرة ممضوغة.. غدا تشويها الشمس فتجف وتكنسها.. تخر دمعة.. دمعات.. تمسحها وتنصرف لحجرتها.. تستبد بها هواجس مبتورة.. بعد ساعة تلمح ظل خالتها ينسحب من باحة البيت.. تجري لترى إن كانت تنوي الخروج.. تدخل مريم حجرتها.. يرتفع أذان المغرب.. تقفل باب البيت.. يوسوس لها الشيطان الرجيم.. يؤكد أنها لم تصل العصر.. تتوضأ وتصلي ثلاث المغرب.. تلحقها بركعتي السنة.. تصلي أربع العصر احتياطاً.. ترفع كفيها للسماء: يا رب!

تظل أكفها المقعرة معلقة بين أرنبة أنفها وصدرها.. لا تعرف ماذا تريد منه؟ تنتظره ليلهمها الدعاء المناسب.. يدخل شقيقها حجرتها.. تنتبه أنها لم تسمع مفتاحه ولا خطواته.. يُخرج كيساً كان يخفيه وراء ظهره.. يدلدله بين ناظريها.. موز.. كيلوان كما ترجح البنت.. يطوي طرف سجادتها ويقعد أمامها.. يشق الكيس ويخرج موزة يقشرها.. يمدها به وهو يكاد ينفجر ضحكاً.. يلتقط أخرى ويبلع نصفها في لقمة.. يقهقه وهو يرى ملامحها المستفهمة: أتذكرين يحيى؟ يحيى الجيزاني زميلي في المتوسطة! قابلته في سوق الوادي.. صار حارس مدرسة.. لن تحزري ماذا اشترى حين استلم معاشه الأول؟ هههه موز.. اشترى كرتون موز ووضعه أمامه.. هههه لم يكن يشبع منه وهو طفل.. أراد أن يأكل حتى لا يعود بإمكانه النظر للكرتون.

تسري في البنت عدوى خفته.. تقول: فعلناها قبله بعصير طماطم.

يشمئز ويستفهم.. تبتسم قليلاً: نسيت؟

- أذكر الكراتين حول سرير أمي في المستشفى.

- كان الزوار يحضرونه لأنه الأفضل لفقر الدم.. نعود بأمي والكراتين للبيت.

يضحك: أما كنت تجبرينها على شربه؟

- كانت - يرحمها الله - تعافه..

- ...

- فأنت لا تتذكر حين دخلنا المطبخ بعد ظهر يوم قائظ وتراهنّا من يستطيع أن يشرب أكبر عدد من العلب؟

يتغير وجه الشقيق قرفاً: والعصير حار؟

- لم يكن لدينا ثلاجة.

- يعععع.. ومن غلب الآخر؟

تضحك الفتاة وهي تقشر لها موزة ثالثة: أنت استفرغت بعد نصف ساعة وانتصرت أنا.

تلف الموزتين الباقية في الكيس.. يفهم الفتى أنها للخالة.. يسأل

شقيقته: نامت؟

تمط الفتاة شفتيها وترفع كتفيها.. ليست واثقة.. يقوم وهو يخبرها أنه سيعشى زملاءه في العمل غداً.. سيستضيف الجيران أيضاً: كي تزورك نساء.

- وخالتي؟

كان قد استعد لهذا السؤال.. يعطيها معضلته: أبلع معهم وأنفض يدي دون أن أدعوهم؟! ترده لاستفهامها بشأن الخالة.. تظهر نبرته العالية: أدعوهم لتخالطي غيرها.. انظري لنفسك.. رائحتها ستعلق فيك إن بقيتما وحدكما شهراً آخر.

***

بعد تسعة أشهر وسبعة أيام

تسند مريم صندوقاً ضخمًا على جدار حجرتها.. عروتها منزوعة.. في جنبها بقعة بيضاء مكشوطة.. تسمع حنفية ماء تنقط.. تحاول إغلاقها.. كلما أدارتها نقطت أكثر.. أمها وأبوها يقفان تحت طلحة مغبرة.. أختها موضي فوق السطح.. معها قدر تأكل منه.. تسمع صوت أظافرها يكحت حبات الأرز المحروقة من قاع القدر.. غيمة سمينة تمر بجوارها.. الأبوان لا ينتبهان.. الحنفية تنقط.. الأب يضع خاصرته بيده ويتقيأ عصارة مخاطية صفراء.. حصة تأكل الأرز.. جارتهم تقبل رأسها.. تعدها بزيارة ثانية.. تكذب..

تخرج مريم من حجرتها.. تتجه للمطبخ.. البنت مع الخطابة تفتان أرغفة خبز في المرق.. بعد الوليمة التي أقامها شقيقها عرفت الفتاة ما ينقصها لتكون كالنساء.. بدأت تخبز كل يوم شيئاً مختلفاً.. الخطابة تساعدها وتوجهها.. تدخل مريم والبنت تصب السمن على وجه الخبز المغمور بالمرق.. تمد يدها لتأخذ شريحة لحم مقدد.. يلسع المرق إصبعها.. ابنة موضي تعدها بأن تضع وجبتها الآن.. بيدها تجذب الخطابة رأس مريم لتقبّله.. هذه سنّتها الجديدة.. الفتاة تعترض بشدة.. الحق للعجوز بحكم السن.. الخطابة تتجاهل تحفّظ ابنة موضي.. هذا أفضل من محاولات ترهق الثلاث لحمل مريم على سلام لائق.. تأخذها البنت بيدها وتقعدها على الحصير في الباحة.. تلحقهما الخطابة بماعون صغير..

تضعه أمامها وتأخذ القهوة من يد البنت.. شيء ما يزعج ابنة موضي من أحاديث الخطابة في وجود مريم.. هي تخص مريم بحفاوة وقورة تتلوها كاملة.. لا تتلقى رداً ولا تنتظره.. تدير وجهها عنها.. تحدث البنت في أي شيء حتى فيما يخص خالتها.. مرات قد تراعي وجودها مجاراة للفتاة.. وبلمحة تنسى.

البنت تعامل الخطابة كجدة.. تحبها كجدة.. وعندما تغضبها اليوم ستغضب كما على جدة.. لقد عادت تلمح لتزويج الفتى.. تريد من الأخت أن تختار له.. تعرض أمامها أسماء صبايا وملامحهن.. تبشرها أن أخاها محظوظ.. تقدم خيارات لا تغطي أصابع يد واحدة.. تنبهها بأن بنات الحضر قليل لتعرض بناتاً أكبر منه بسنتين أو ثلاث.. واحدة منهن على الأقل لا تبدو أكبر منه.. جميلة ومن نسوة طيبات.. ولن تسعى بأخبار خالتك من بيت لآخر.

بعد الخطابة تعيد الفتاة مريم لحجرتها.. تطوي الحصير.. ترد القهوة في المطبخ.. يمسح السافي الخطوات.. تتأمل البنت المكان.. كأن ما حدث طوال ساعتين لم يحصل أبداً.. تغسل ثوبا لخالتها.. تتخيل نفسها تفاتح الأخ في الزواج.. تفرك الثوب وبقعته لا تزول.. في فقاقيع الصابون يرتسم وجهه.. يسمع ويقتله الحياء.. تعصر الثوب والبقعة العنيدة باقية.. تنشره وتطل في حجرة الخالة.. ماذا لو غضبت مريم؟ قد تثير سيرة الزواج ذكرى خطبتها.. كيف تريدها الخطابة أن تحدثه؟! تستحي.. وهو لم يطلب الزواج.. هل يجب فعلا أن يتزوج؟ تتمنى لو تطلب من مريم أن تتحدث معه.. تقعد بجوارها.. تحكي أفكار لا تعتني بربطها.. بين كل تصريح أخرس ولاحقه تنفث تنهيدة.. ترفع الخالة

رأسا سادراً.. يصارحها «تشبه موضي.. ربما لم يكذب الولدان.. الآن وهي تلوي جانب فمها وأنفها تشبهها أكثر.. لكن الحذر لا زال مهما» تختلس نظرات للفتاة.. تخشى أن تكون سمعت ما قاله.. وجهها يوحي بأنها لم تسمع.. تضع يدها على كتفها.. يخطر لها أن تطلب منها شراء زمام بفص أحمر؟ تشم البنت رائحة حطب السمر.. تتخيل صوت هسيسه في اللهب.. تشير جهة الرائحة.. تحدد مريم أي جيران أشعلوا النار.. تنهض الفتاة.. تسأل خالتها.. تعي مريم أنها تلقت سؤالاً.. تهز رأسها موافقة.. لا تعرف علام لكنها وافقت.. تعينها على الوقوف.. تقودها للمجلس.. تشير لأقرب موضع عند الوجار.. توقد النار.. تتجهم مريم كلما فرقع النسغ في الجذوع.. يخيفها لسان اللهب.. توترها الأشكال المتراقصة فيه.. تنهض وتترك البنت وحدها..

بعد أيام يخبر الفتى شقيقته أنه سيقتطع جزءاً من حوش الجدة.. سيبني غرفة له وأخرى لها.. أو دورة مياه أخرى.. ربما مطبخا جديداً.. يستشيرها ثم يشدد عليها أن تلازم حجرتها أو حجرة الخالة حين يأتي الأنفار.. تفهم أن الخطابة ملّت انتظارها.. حدثته عن العرس بنفسها.. قبل أن تستوعب يأتي بعماله.. يغلق الباب عليها كل صباح.. يحبسها في غرفة الجدة.. تزاحمها وجوه العرائس في أسرها.. كلما تذكرت اسما نطقته الخطابة ضاقت أنفاسها.. تدور في الحجرة التي تحاول ألا تدخلها إلا وقت النوم.. تحد النظر فيها.. تراها بعين العروس.. غرفة هرمة كصاحبتها الميتة.. طيب الصندوق شحيح.. المكحلة فارغة.. ميلها مفقود.. لا برقع جديد في الفاتية.. لا قطعة قماش بانتظار من يخيطها.. تتذكر كيف كان عليها تنظيف مكينة الخياطة الصدئة.. أن تشتري

خيوطا وإبرة بدل المنكسرة.. ترفع باب الفاتية.. الأرضة تنخرها أمام عيونها العُمي.. تشم رائحتها.. الحجرة قبر جاهز للانغلاق عليها.. مثل حصة ستأكلها الإرضة بصمت.. أكان فألاً سيئاً أن أخذت غرفتها؟! تتذكر كيف قمع الأخ إصرارها الدائم على تنظيف غرفة مريم: اتركيها في خراها.. عندك فائض وقت ونشاط نظفي غرفتك أنت.

لا يعرف ما يعنيه نبش حجرة ميت! لم يجرب ذلك.. كفته ذلك مرتين وهي طفلة.. لن يفهم كيف تشعر كلما عاودتها الذكرى أن تقليب حاجات الميت ككشف عورته.. تهوي في الزاوية تبكي.. تطل عليها روح الجدة.. ترى وجهها العابس.. تشم رائحة عرقها الخفيف ممزوجا بالحبشوش.. هل كان خبر زواجه ليفرحها؟ هل انقطعت عن زيارة الوادي لانشغالها بمريم؟ أم أنها نسيتنا حين ماتت أمنا؟ هل أحبتنا؟ هل سأجن مثل خالتي؟ ألن أتزوج؟ ألن يرغب فيّ رجل؟ ألا أصلح لأي رجل؟

***

بعد عشرة أشهر

- خالة! تسمعينني؟ أنت تسمعين.. أعرف.. إن كنت لا تسمعين فلا بأس أيضاً.. يجب أن أتكلم.. أن أسمع صوتي.. أن أقول أي شيء.. سأبدأ من البداية.. اسمعي.. حين كنا صغاراً كان أي مكروه يحدث في بيتنا يتعلق بأمي بلا شكّ.. ومات أبي.. مات قبل أمي.. فجأة خرج ثم لم يعد.. ناس كثير حولنا بكوا.. أنا وأخي لم نبك كثيراً.. لم يعن ذلك أكثر من أنه لن يحاسبنا عند دخول أمي المستشفى.. نفعل بالبيت ما نشاء.. نتسابق جرياً على جدار السطح.. المهزوم من يتباطأ أو يسقط في الشارع.. نتراهن من يقف في الرمضاء أطول مدة على قدم واحدة.. من يلهم من بهارات أمي أكثر.. من يبقى وقتاً أطول دون أن يبل ريقه بقطرة ماء.. مرة ذهب جيراننا للبرّ.. تسلقنا جدار بيتهم.. أخي جرح ساقه وخرج بسيف نايلون أبيض اللون.. أنا حصلت على كتاب ملون.. في البيت أراد أن يكون فارساً.. يطعنني بسيفه غير آبه بوعيدي.. كسرته فمزق كتابي.. هههه بكيت.. أنا لا أعرف كيف أقرأ.. الصور كانت جميلة.. خالة تسمعين؟ يبدو لي أحياناً أنك توقفت عن الاستماع منذ.. ربما مذ خلعت برقعك.. كم أشتاق له.. كان يستر هذه النظرة الـ.. ليتك تخلعينها مع البرقع.. هل نسيت برقعك؟ حين جئنا كنا نتمنى أن تخلعيه ولو لحظات.. أردنا أن نتأكد من مدى شبهك بأمي أو جدتي حصة.. لم أرك تبكين على أمك؟ لا بأس.. أنا أيضاً لم أبك كثيراً حين أخبرونا بوفاة

جدتي.. موت أمي يختلف.. شعرت أن أحداً استل شعرة من قلبي.. لم أبك طويلاً.. خشيت أن يستمر أخي بالبكاء.. كنت جاهلة.. يجب أن يبكي المرء على أبويه كثيراً.. هل يسمى البكاء على الوالدين كثير؟ تخيلي أن أبكي الآن يا خالة.. سأسألك ولا تجيبي.. يعني أعرف أنك لا تجيبين.. هل بعقلك شيء فعلاً؟! راقبتك مذ أتينا.. تفعلين ما تريدين.. تأكلين حين تجوعين.. تنامين حين يغلبك النعاس.. تخرجين متى شئت.. أقصد حين كان ذلك ممكناً.. أولئك الذين لا تحبينهم يعرفون.. تبينين ذلك بوضوح.. لم تحاولي إخفاء قلبك.. هل هذه أفعال مجانين؟ هل تخيفينهم لأنك تفعلين ما لا يستطيعون فعله؟ أنت تخيفينني مع أني أحبك.. أخاف ألا ترجعي مثلنا.. تخيلي أن أفعل مثلك؟ ألا أعتني بالبيت.. ألا أعد لعرس أخي القريب.. ألا أصنع بخورًا لحجرته الجديدة.. أم العروس ستأتي ببخورها لكن علي أن أريها أن بخورنا أفضل.. لا يصح أن تأتي العروس والبيت بلا رائحة.. سيفرش الغرفة بمشمع أحمر.. سيركّب مكيفاً صحراوياً يبرّد حجرته.. علي أن أملأ المكيف بالماء كل يوم قبل الظهر.. بعد يومين أو ثلاثة من عرسه ستفعل امرأته ذلك.. هل أتركها تعد الغداء أيضاً؟ ماذا عن القهوة؟ أنا وأنت نحبّ القهوة.. ربما يجب أن أعدّها أنا.. هل أستطيع أن أشربها أمامها؟ لا يعرفون أني أشرب القهوة.. قال إنه يتزوج لأجلي.. امرأة أخرى تعتني بك يا خالة.. ثم ماذا؟! أتزوج أنا؟ هل سأطرق مثله باباً لأخطب رجلاً؟! سأرقص في عرسه.. هل تزعجك سيرة العرس يا خالة؟! لا أحد يسمعني.. جاراتنا اللاتي صرن يأتين كلما أقام وليمة كبيرات.. كبيرات جداً.. في سن أمي يرحمها الله أو في عمرك.. فيم أتحدث معهن؟! أنا أحادثهن لكني لا أريد.. الخطابة أيضا لا تريدهن.. يعني لم تأت معهن غير مرة.. ربما لأنهن

لا يأتين ببناتهن.. إحداهن أخبرتني أن لديها اثنتان في سني.. رجوتها أن تسمح لهن بزيارتي.. لن يأتين.. العروس ستكون في عمري.. الخطابة قالت إنها ستؤانسني.. قالت إني سأحبها.. أعتقد أني سأكرهها.. ستأتي وتتظاهر بأنها امرأة.. فقط لأنها تزوجت.. يجب أن تستحمي يا خالة.. أعرف أنك لا تحبين.. ستأتي أم العروس وأهلها بعد أن يتم البناء.. سيرون الحجرة ويضعون جهازها فيها.. سيسلمون عليك.. قلت له إني أضمن ألا تخرجي فلم يقبل.. لو أنك تحاولين قليلاً أمامه أن.. خالة! ليلة الضعن سيرمون أيضاً.. يجب ألا ترعبك الطلقات.. طلبت ألا يفعلوا.. لكنه سيرمي هو أيضاً.. أهل العروس سيأكلون وجهه إن لم يفعل.. أنا أيضا يخيفني صوت الرصاص.. آه.. يجب أن تستحمي.

***

بعد عشرة أشهر وخمسة أيام

الطرق يستمر في الخارج.. رطانة اللصوص غير مفهومة.. مريم في حجرتها.. مسجلها مسروق.. لا شيء يغطي جلبتهم.. حتى هو اختبأ في الفاتية وأغلقها عليه.. الصداع يشق رأسيهما.. تشم رائحة أجسادهم كلما خطروا بقرب الحجرة.. ترتعب وليس معها أحد ليحميها منهم..

الفتى يضع أمامها طعاماً.. يضعه دون كلمة.. لا بد أنه مسموم.. يريدونها أن تموت.. لا تقربه.. إن ذبحها الجوع ذاقت منه على رؤوس أصابعها.. مرات يدخل ابن موضي الفتاة عندها.. تأتي معها بقهوة وتمر.. اليوم أحضرت بخورا تلملمه.. تدعوها لتكوره معها.. تخجل مريم وترفض بابتسامة.. تحب رائحة البخور الطري.. تعد حباته التي تدحرجها البنت في الصحن.. تتابع رصّ حلقاته في الصحن.. تبدأ من محيطه للداخل.. تزعجها الكرات غير متسقة الحجم مع البقية.. تقاوم رغبتها في عجنها لتعيد البنت تشكيلها.. تخفي فرحتها.. لا يجوز أن يراها أحد.. لا تجرؤ على سؤالها إن كانت قد رأته.. ولا متى سيقام العرس.. تلاحظ البنت تقلقل خالتها.. تخبرها أن الأنفار سينتهون قريباً.. ترفع كرة مضمخة بالطيب.. تعدها بأن تهبها ملء علبة حين يجف.. تبهت مريم.. سيسرقون بخورها أيضاً؟! تشد قدر خليط البخور.. تضحك البنت.. تصحح وعدها: علبتين؟ أبشري!

تتبخر ابتسامة ابنة موضي حين تراها تسحب الصحن.. تدسه تحت الفاتية.. يبقى شطر الصحن ظاهراً.. البنت تحوقل وهي تزيل ما في كفها من فتيت.. تمسحه في مسند خلفها.. تسحب نفسها جهة الباب.. تلتزم الصمت.. بعد ساعة يطرق الفتى الباب ويعلن أنهم ذهبوا.. تجمد مريم حين تراه.. تحمل البنت القدر.. ترمق مريم التي لا زالت تحول بينها وبين الصحن.. تخشى أن تفتت جهد نهار كامل.. للحظة تفكر بأن تطلب منه التدخل.. تشفق على الخالة.. تهز رأسها وتخرج.

مريم تقوس جسدها حول الصحن.. تغمض ويزم بها الماء.. سيل طفيف يبللها.. يهدهدها وهي تطفو فيه.. نصفه الآن ماء ونصف يغلي كزيت حار.. فيه سحلية مقلوبة على ظهرها.. لون بطنها يميل للرمادي.. بمغرفة تقلبها على بطنها.. لونها أزرق نيلي.. الجزء البارد من السيل يرتفع.. فيه شابان.. ربما فتى وفتاة.. جميلان يغرقان.. تجري مريم صوبهما.. تسمع دوي خطواتها الواسعة.. تحملهما كل واحد تحت إبط..

***

بعد عشرة أشهر وتسعة عشر يوماً

تمشي مريم في أرض محروثة.. الأرض لأخوالها.. تسير وتشعر بهشاشة الرمل.. تتكسر طبقته الرقيقة تحت قدميها.. أخوالها يزرعون.. تسير في المكان ولا تراهم.. لا أثر لزرعهم أيضاً.. تقف في أرض منخفضة عما حولها.. أحد أخوالها واقف في جيب محفور تحت الأرض المحروثة.. منحني الرأس قليلاً.. المكان غار مستطيل بحجم حجرة أو أكبر.. زرع الخال حشائش قصيرة مسودّة.. يزرع هنا ما لن ينمو تحت شمسهم الحارة.. لا ترى للزرع المسودّ ثمراً.. تنظر للأسفل فترى دودًا كأصابع مبتورة يخرج من الأرض.. يدبّ في الحرث.. يلمس ثوبها فتصرخ..

تهبط يد ابنة موضي على صدر مريم.. تسمي عليها.. تنظر لوجه الخالة المتعرق فتتذكر الأم.. كانت يسرعون بها للمستشفى إن عجزت عن التنفس.. لا مستشفى يعيد خالتها طيبة؟! تنتظرها لتهدأ.. تعرض عليها أن ترى حجرة العرس.. تنقاد مريم لها.. يذكرها كم هو عيب أن تظهر العروس فرحتها.. تتبع البنت للغرف الجديدة.. لم تقترب منها من قبل.. الفتاة تدخل الغرفة القصوى.. مريم تتلكأ عند حوش الغنم.. تمرر راحتها على جداره.. صار أصغر بعد أن اقتطعوا الحجرات الجديدة منه.. الحجرة الأولى مطبخ جديد.. كبير وبابه حديد.. تقف بباب الثانية.. الفتى وسطها.. يتحدث مع أخته بصوت مهموس ويضحكان.. تتحسس بباطن كفها حزوز الجدار من الخارج.. تلمس مقابلها المسمت

الأملس في الداخل.. حجرة عرسها أصغر من حجرتها الأولى لكنها جديدة.. تعرف أن العرس قريب..

- فقط ليلة العرس..

- هل تريد القضاء على باقي عقلها؟! ألست تخشى الناس؟! فماذا سيقولون إن لم يروا خالتك حاضرة؟!

- كلهم يعرفون.. صدقيني لن يستنكروا غيابها..

- وكيف ستبقيها في حجرتها؟

- سأركب قفلا عليها..

يخبرها أنهما ينظران نحوها.. تلمح ارتباك البنت وعبوس الفتى.. ينطرح وجه الفتاة على صدرها.. تلوي أصابعها وتبكي.. أخوها يخطو خطوات ضالة في الحجرة.. يتحدث مكشراً عن أنيابه.. يضرب بكفه الجدار: ماذا يرضيك؟! أن تقتلي فرحتي لتراعيها! حتى في ليلة العرس يجب أن أقلق مما قد تفعله!

يمرق بجوار مريم.. تلحقه أخته تاركة الخالة بين الجدران الرمادية.. لا يجب أن تبقى في حجرة العرس وحدها.. تعود جهة باحة البيت.. الفتاة تكنسها وتمسح عينها.. تنظر لها الفتاة وتبكي أكثر.. تقف مريم بجوارها.. ترى طفلاً يطل من سطح البيت.. يبتسم فتظهر أسنانه المشوهة.. أسنان الجهة اليسرى من وجهه ضخمة جداً.. يهوي من السطح.. يرتطم بالأرض وراء الحصير بشبر.. يتفتت.. يصير بقعاً

لونية زرقاء وخضراء وبرتقالية.. تتكور البقع على بعضها لتغدو قطعة بنية مطاطية.. تتخلق منها ميقعة كبيرة.. ميقعة قد تكفي لعشرة أصواع من البر.. تضطرب الميقعة.. تتدحرج بعنف.. تكاد ترتطم بالجدران.. لو ضربت جداراً ستقوضه..

***

بعد أحد عشر شهراً ويومان

يثبتها الفتى في باحة البيت كما يثبت ذبيحة جامعاً أطرافها تحته.. أخته بسرعة تصب أقداح ماء متتالية على رأسها.. تفرك شعر مريم بالشامبو الأحمر.. مثل فتاة ملصق الشامبو تلوي مريم عنقها لتتنفس.. لتتجنب الغرق.. تصرخ ويرتبك الفتى: عجّلي.. فضحتنا!

تقبل الخطابة على الضجة.. يميزان صوتها الأنفي قبل أن يرياها.. تنبه لدخولها: يا آل خليفة!

ترى الثلاثة فتفهم.. تحوقل وهي ترمي عباءتها اللامعة على الحصير.. تشمر عن ساعديها.. تضع يديها على كتفي مريم لتثبتها.. توزع توجيهات مختصرة للعريس وأخته.. يبتعد مطيعاً وهي تدعو له بالتوفيق.. تلم البنت الشامبو وأواني الماء.. تخلع عن مريم ثوبها وترفع صوتها للبنت لتأتي ببديله.. تسألها وهي مقبلة: ألن تغلقوا بابها عليها؟ لماذا تعذبونها وتعذبون أنفسكم باستحمامها؟

- لن نحبس خالتي.. ستحضر العرس وسأنتبه لها..

تقعد مريم في الشمس منكمشة على ذاتها.. تدخل الخطابة حجرة العرس.. تنتبه ابنة موضي أنها تنسل من حياتها أسرع.. مرورها غدا خاطفاً.. لم يعد يرويها.. الوقت الذي تقضيه في بيتهم تختص به العريس

وحجرته.. حماية لنفسها تحسم أمرها.. تقرر أن تعيد جسور التحفظ والتجمل أمامها.. تسحب بحذر امتيازات مقام الجدة الذي وهبتها إياه.. يجب أن تفعل حتى لو لم تنتبه العجوز.

***

بعد سنتين وخمسة أشهر ويومان

شرشف خفيف على أقدام مريم.. شرشف تتماوج فيه درجات البني.. شفاف لكنها لن تميز ذلك.. إذا تحركت قليلاً بان تحته حمرة ثوبها البرلون بدوائره البيضاء الصغيرة.. أما هي فلن ترى في الغبش الذي يزحف على مقلتيها غير قماش كدر اللون.. راحتها ملقاة بجوارها مقلوبة الكف.. تحركها.. ترفعها.. تمدها جهة فخذها.. تتوقف عند زهرة الشرشف البيضاء فوق ركبتها.. ترى الزهرة لطخة أفتح.. بتلات قلب الزهرة المتوردة منطبقة.. أسديتها لم تظهر بعد أو لن تنبت.. تحاول مريم أن تقطف الزهرة.. يتحرك الشرشف.. بحذر تمسك طرفه بين سبابتها وإبهامها.. مثل سلا بهيمة ينطرح بجوارها.. ما زال يتنفس.. تمسكه بحذر أشد وترميه خارج الغرفة.. يلتوي في حلق الباب.. يربض على عتبته.. تميل بنصفها العلوي متكئة على ساعدها.. تنتظر أن يسكن لتلمسه.. الشابة الغريبة تقبل في هذه اللحظة.. تشم مريم رائحتها.. تطل لتأخذ الشرشف بزفرة وتبتعد.. من الجدار تخرج امرأة تشبه حصة.. حصة في شبابها.. كفها الأيمن يتدلى بأصابعه كعنق دجاجة مدقوق.. لحم الساعد مفري.. يبرز من وسطه عظمان توأمان ودودة.. تزحف صوب مريم.. الدودة تتلوى على أصابعها.. ذيلها يختلج.. تنظر لمريم طويلاً.. تعيد العظم مكانه وتقفل بطرف الدودة الجرح.. تشعر مريم بألم في يدها.. تتحسس معصمها..

تدخل ابنة موضي.. تفكر بأن تخبرها أن يدها تؤلمها.. يجب أن توشوشها فلا تسمع الغريبة.. الغريبة احتلت الحجرة الجديدة.. طردت عريس مريم وأخذت الحجرة.. ستوشوشها وتطلب أن تصب لها الكثير من القهوة.. تقبل ابنة موضي رأس خالتها ويدها.. رائحتها مختلفة.. هل سرقت الغريبة رائحتها؟ هل ابنة موضي السارقة؟ رائحتها تغيرت.. لم تحضر القهوة معها..

الفتاة التي لم تعد فتاة تسأل مريم عن حالها.. مريم تخفض رأسها وتصمت.. يزحف الشرشف على جسدها.. يزحف ويتنفس.. تخشى أن تبعده.. تستند على يدها البعيدة عن الباب لتسحب نفسها على مهل.. تشعر بشيء معها تحته.. تنظر للشيء في الغبش.. يبدو كجذع فسيلة مطروح.. جثة بنية يابسة.. تثني ركبتيها وتنصب ساقيها.. تخفي وجهها ويديها..

الفتاة التي لم تعد فتاة تقبل يد مريم وتبكي: طلبت منه أن آخذك معي.. عندي ستكونين مرتاحة أكثر.. ربما نشرب القهوة ضحى كما اعتدنا.. هل تذكرين يا خالة؟ تذكرين كيف كنا نتحدث لساعات ونتقهوى؟ نحكي عن أمي وعن جدتي.. نحكي عن جيرانكم.. عن سدرة بيتنا في الوادي.. عن الثياب التي سنفصلها.. عن الرجال.. لا يريد أن آخذك معي.. سترتاحين عندي.. أعرف.

من باحة البيت يأتي صوت الشابة الأخرى تنادي ابنة موضي لتشربا القهوة.. تقبل يدي مريم: أنت خالتي وأمي.. أنا أحق بك! .. تدني برقعها على وجهها وتخرج.

بعد كل شيء

باب حديدي طويل دقيق.. إطاره مركب بلا مهارة.. بينه والجدار الطيني فراغ طولي غير منتظم.. يتسع في مواضع لتنفذ منه سبابة رضيع.. ويضيق فلا تدخل منه ذبابة.. طلاء الباب من جهته الخارجية أخضر.. عليه تشكيلات حديدية مطروقة على هيئة أجنة أو كُلى.. بعضها تتقابل وبعضها تتخاصم.. الوجه الداخلي مسطح لا تكشف الظلمة لونه.. حين تتحسسه اليد تلحظ أنه مقشر في خطوط متعرجة قصيرة.. يفتح الباب.. يقف في مدخله شاب.. ينسكب الضوء على خيال القابعة في الزاوية.. يُظهر جانب جسدها.. يكشف وجهها الجامد.. تضغط أشعة الضوء التي لا تراها على عيونها المفتوحة.. تشم رائحته فتجمد.. يتأكد أنها لن تتحرك.. يسمح بمرور شابة بصحن طعام.. تطوي الداخلة شيلتها طيتين على أنفها.. تكتم أنفاسها وتضع الماعون على الأرض وتخرج.. يسقط الضوء الذي حجبته على امرأة الزاوية.. الحزوز القديمة في كاحليها لا تبرأ.. بين شعرات رأسها الملتصقة بجمجمتها فراغات تملؤها قروح مفلطحة.. يصارع الشاب البهيمة التي لا تدخل الحمام بنفسها.. بناه في طرف حجرتها.. وتتبرز أحيانا في مكانها.. عليه هو أو زوجته أن ينظفاها والحجرة.. تدير جسدها ناحيته.. تبحث عنه بما بقي من حواسها.. اليوم تحديداً تنتظره.. تحبو بأعين بيضاء باتجاهه.. تخلّف وراءها بعرات صغيرة جافة.. يرفعها بيده ليدخلها الحمام.. يسحبها

فينغلق باب الحجرة.. يغرقان في العتمة الزنخة.. يعرف الطريق في الظلمة.. يدفعها للحمام ويترقب عويلها.. العويل الذي يجننه.. لو عوت سينفضها لتهدأ.. لن ينتبه وهي ترفع كفها لوجهه.. تلطخ عارضه بما في يدها.. يرميها في الأرض.. ينغلق الباب على لعنات.. ينفتح بأنفاس سريعة.. تشعر بالنور ثم احتجابه.. يصعقها الصوت.. الصوت الذي تنتظره.. الصوت الذي تعرفه.. يرن في جمجمتها.. تتلقاه فترتد من قوة الضربة للجدار خلفها.. لن ترى العصا ترتعش في يد ابن أختها.. لن ترى دموعه وارتعاشه.. تشم الدم.. يقطر رأس العصا قطرات دم دافئة.. تسيل نقطة من الأنف.. أخرى من الأذن.. ينشرخ المكان..

***

حُجرة

بعد قراءة هذه الرواية، نظرتك تجاه بعض الأشياء ستتبدل. فالشعور الذي تتركه في النفس لا يتوارى بسرعة. أبطال هذه الرواية أشخاص عاديين جداً، ربما نلتقيهم كل يوم، وفي كل مكان، لكننا لا نلمس الأرواح القلقة التي في داخلهم، ولا الصراعات التي تشكلهم بالصورة التي يحاولون تجميلها أمامنا. في روايتها الرابعة تحاول أمل الفاران سبر أغوار النفس البشرية المعقدة، لا تقدم وصفات جاهزة أو دليل ارشادي لفهمها. لكن تشرّحها بجمل قصيرة وصادمة وكأنها تريد أن تقول هذا ما نحن عليه حتى وإن سعينا إلى تجميله.

أمل الفاران

قاصة وروائية سعودية، حازت روايتها "روحها الموشومة به" بجائزة الشارقة للإبداع العربي 2004. كما وصلت روايتها "غواصوا الأحقاف" لجائزة الشيخ زايد. صدر لها عن دار أثر مجموعة قصصية بعنوان "الفتاة التي لم تعد تكبر في ألبوم الصور". كذلك أصدرت رواية "كائنات من طرب" و"وحدي في البيت - قصص".

تصميم الغلاف : أحمد الصباغ

ISBN 978-603-91676-0-0

9 786039 167600

لوحة الغلاف للفنانة :
عالية الفارسي

أثر